سُورَةُ الأَحْزَابِ

مدنية وهي ثلاث وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ ناداه بالنبي تعظيماً له، ولتعليم الناس بأنه رسول الله ﴿ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ والمراد بالتقوى الثبات عليه، والازدياد منه، فإن له ﷺ باباً واسعاً في تقوى الله ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ المجاهرين بالكفر ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ المضمرين له، ولا تساعدهم على شيء، واحترز منهم، فإنهم أعداء الله والمؤمنين، والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، فهو تحذير للمؤمنين كافة من طاعة أهل الكفر والنفاق. وروي أن أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور، قدموا المدينة بعد قتال أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلّموه، فنزلوا على «عبد الله بن أبيّ ابن سلول» وجاء معهم ابن أبيٍّ فقالوا لرسول الله ﷺ وعنده عمر: ارفض ذكر آلهتنا، وقل إنها تشفع وتنفع، ونَدَعك وربك، فشقّ ذلك على النبي ﷺ والمؤمنين، فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله ائذن لي في قتلهم!! فقال ﷺ: «إني أعطيتهم الأمان» فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله، فأمره النبي ﷺ أن يخرجهم من

المدينة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والمفاسد ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكم في فعله وصنعه، إلا بمقتضى الحكمة والمصلحة.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ﴾ أي اعمل بما يوحيه إليك ربك، من الشرع القويم، والدين الحكيم، واستمسك بالقرآن المنزل عليك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ الخطاب للرسول ﷺ والجمعُ للتعظيم، وقيل: الخطاب له وللمؤمنين، والجملة تعليلٌ للأمر، أي لا تخفى عليه خافيه من أعمالكم، يعلم المطيع من العاصي، والبَرَّ من الفاجر، وسيجازيكم عليها.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أي فوِّضْ جميع أمورك إليه تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي كفى به حافظاً، موكولاً إليه كل الأمور.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى، تمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرون مِنْهنَّ أُمَّهاتِكُمْ﴾ الآية وتنبيهاً على أن كون المظاهر منها أمّاً، وكون الدَّعيّ ابناً أي بمنزلة الأم والابن، في الآثار والأحكام في الاستحالة بمنزلة اجتماع القلبين في جوف واحد، وقد كانت العرب تزعم أن اللبيب الأديب الأريب، له قلبان في جوفه، ولذلك قيل لأبي معمر ذو القلبين، فردَّ الله

سبحانه هذا الزعم الكاذب، أي ما جمع الله تعالى قلبين في رجل واحد، وذكر الجوف لزيادة التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1] ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي ما جمع الزوجية والأمومية في امرأة واحدة، ولا التبني والبنوّة في رجل واحد، بمعنى نفي الجمع بين حقيقة الزوجية، وأحكام الأمومة، ونفي الجمع بين حقيقة الدعوة، وأحكام البنوّة، لإبطال ما كانوا عليه من إجراء أحكام الأمومة على المظاهر منها، وإجراء أحكام البنوّة على الولد المتبنى ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما يفهم من الظهار، والتبنّي ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة في الأعيان، إذ الابن والأم يكون بالولادة حقيقة، لا بالقول قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي باطل ليس له حقيقة ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي المطابق للواقع ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي طريق الحق والاستقامة.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أي انسبوهم إلى آبائهم الذين ولدوهم حقيقةً ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي أعدلُ، أي الدعاء لآبائهم بالغ في العدل والصدق في حكم الله تعالى ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فتنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين وأولياؤكم فيه، فادعوهم بالأخوّة الدينية ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ أي فيما فعلتم مخطئين، بالسهو أو النسيان، أو سبق اللسان، ومثلُه قولُ القائل لغيره: يا

(١) سورة الحج، آية: ٤٦.

بنيَّ بطريق الشفقة، أو يا أبي بطريق التعظيم ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن الجناح والإثم فيما تعمدت قلوبكم بعد النهي ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لعفوه عن المخطىء ورحمته بالعباد. روى الشيخان عن ابن عمر قال: إنَّ «زيدَ بن حارثة» مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلاَّ «زيد بن محمد»[1] حتى نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ..﴾ الآية، فصرنا نقول بعد ذلك: زيد بن حارثة. ورُوي عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: «من ادعى أباً في الإسلام غير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه، فالجنةُ عليه حرام»[2].

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ أي في كل أمر من أمور الدين والدنيا، كما يشهد به الإطلاق، فيجب عليهم أن يكون ﷺ أحبَّ إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقّه آثر لديهم من حقوقها لأنه ﷺ لا يأمرهم ولا يرضى منهم، إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس، وفي قراءة ابن مسعود «وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ» أي في الدين، فإن كل نبي أب لأمته، من حيث إنه أصل فيما فيه الحياة الأبدية، ولذلك صار المؤمنون إخوة، وسبب النزول أن النبي ﷺ كان يخرج إلى الجهاد، ويأمر أصحابه بالخروج، فيقول البعض: نستأذن من آبائنا وأمهاتنا، فنزلت الآية

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/٥١٧، ومسلم في فضائل الصحابة، رقم ٢٤٢٥.

(٢) أخرجه البخاري ١٢/٤٦ في الفرائض ومسلم رقم ٦٣ في الإيمان.

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي منزَّلات منزلة الأمهات في التحريم، واستحقاق التعظيم، وأمَّا فيما عدا ذلك، كالإرث، والخلوة، والنظر، فهنَّ كالأجنبيات، ولهذا لم يتعدَّ التحريم إلى بناتهن ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي ذوو القرابات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوراث، وهو ناسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة، والموالاة في الدين ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وقضائه، فيما أنزله وفرضه الله تعالى ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي أولى بالميراث من المؤمنين بحقِّ الدين، ومن المهاجرين بحقِّ الهجرة ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أي إلا أن تحسنوا إلى إخوانكم، من الفقراء المهاجرين، فلا حرج فيه، وقيل: المراد بفعل المعروف: الوصيةُ، أي إلا أن توصوا إليهم عند الموت ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي مكتوباً ومسطَّراً في اللوح المحفوظ أو القرآن العظيم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي اذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم، بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدين الحق ﴿وَمِنكَ﴾ أي ومنك يا محمد ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ﴾ وتخصيصُهم بالذكر، للإيذان بمزيتهم، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأولو العزم من الرسل، وتقديم نبينا ﷺ عليهم للإبانة عن فضله الجليل وإمامته لجميع الرسل ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً مؤكداً موثَّقاً أن يلتزموا بتبليغ الرسالة، وإنما فعلنا ذلك.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ﴾ أي يوم القيامة، ووضع «الصادقين» موضع ضميرهم، للإيذان من أول الأمر، بأنهم صادقون فيما سُئلوا عنه،

وإنما السؤالُ لحكمة تقتضيه، أي ليسأل الأنبياء، الذين صَدَقوا عهودهم، عما قالوه لقومهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾[1] ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وهيَّأ الله للكافرين الفجار، عذاباً مؤلماً موجعاً، يذوقونه في نار جهنم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي الأحزاب وهم قريش، وغطفان، ويهود بني قريظة، والنضير، كانوا زُهاء اثني عشر ألفاً، فلما سمع ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة، بإشارة «سلمان الفارسي» رضي الله عنه، فضرب معسكره، والخندقُ بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء فرفعوا في الآطام، واشتد الخوف ونَجَمَ النِّفاقُ، حتى قال «معتّب بن قُشير» المنافق: «كان محمد يَعِدنا كنوز كسرى، وقيصر، وأحدُنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط» ومضى على الفريقين قريبٌ من شهر، لا حرب بينهم إلاَّ الترامي بالنَّبْل والحجارة، واشتد الأمر والخوف على المؤمنين، بالغاً ما بلغ، حتى بعث الله على المشركين ريحاً باردة، في ليلة شاتية، فأقعدتهم، وسفَّت الترابَ في وجوههم، وأطفأت نيرانهم، وقلعت خيامهم، وماجت الخيل بعضُها في بعض، فقال «طُليحة بن خُوَيْلِد الأسدي»: أمَّا محمد فقد بدأكم بسحر، فالنَّجاة النَّجاة، فانهزموا، وفرُّوا من غير قتال، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي ريحاً شديدة عاصفة مدمّرة ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة، وقذف في قلوبهم الرعب ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفر الخندق، وترتيب مبادىء الحرب ﴿بَصِيرًا﴾ إشارة إلى أنه تعالى علم التجاءكم إليه، ولذلك فعل ما فعل.

---

(١) سورة المائدة، آية: ١٠٩.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أي من أعلى الوادي، من جهة المشرق، وهم بنو غطفان ومن تَابَعهم من أهل نجد، وانضمَّ إليهم يهود بني قريظة وبني النَّضير ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أي من أسفل الوادي من جهة المغرب، وهم قريش ومن شايَعهم من أوباش العرب ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ أي مالت عن سَنَنها، وانحرفت عن مستوى نظرها، حَيْرةً لشدة الرَّوْع ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ لأن الرئة تنتفخ من شدة الفزع، أي زالت عن أماكنها حتى كادت تبلغ الحناجر، والآية تمثيلٌ لاضطراب القلوب، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقةً ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾ أي تظنون بالله أنواع الظنون، حيث ظنَّ المخلصون بالله أنه ينجز وعده، في إعلاء دينه، كما يعرب عنه قولهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ﴾ والمنافقون خافوا وزلزلوا، وظنُّوا ما حكى عنهم مما لا خير فيه.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك الزمان الهائل ﴿ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي عوملوا معاملة من يُختبر، فظهر الراسخ من المتزلزل ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ من الهول والفزع، والابتلاء ليس لاستبانة الأمر له تعالى، بل لإظهاره لغيره.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي ضعفُ اعتقاد، وهم قومٌ لا بصيرة لهم في الدين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليه ﴿ مَّا

﴿وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ بإعلاء الدين، والظفر على الأعداء ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي وَعْد غرور، والقائل «معتّب بن قُشير» وإخوانه في النفاق والضلال، وهم طائفة كانوا يتظاهرون بالإيمان، وهم يبطنون الكفر، ولهذا صدر عنهم مثل هذا الكلام.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ هم أوس بن قيظي وأتباعه، وعبد الله بن أُبيّ وأشياعُه ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يثرب اسم المدينة المنورة، أي يا أهل المدينة وقد نهى ﷺ أن تسمى بيثرب كراهة لها، وقال هي: طيبة أو طابة، كأنهم ذكروها بذلك مخالفة له ﷺ ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ لاموضع إقامة لكم، يريدون معسكر النبي ﷺ ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلى منازلكم بالمدينة، مرادهم الأمر بالفرار، لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجاً لمقالهم ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ﴾ وهم بنو حارثة وبنو سلمة ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي غير حصينة، معرَّضة للعدوِّ والسرَّاق، والعورةُ في الأصل: الخللُ، أطلقت على المحلِّ مبالغةً ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ والحال إنها ليست كذلك، بل هي حصينة ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ أي ما يريدون ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من القتال.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ أي إلى بيوتهم ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي من جميع جوانب المدينة وأطرافها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟﴾ أي طُلب منهم ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي الرِدَّة، والرجعة إلى الكفر، ومقاتلة المسلمين، مكان ما سئلوا من الإيمان والطاعة ﴿لَـَٔاتَوْهَا﴾ أي لأعطوها من أنفسهم، غير مبالين بالإسلام وأهله

﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ﴾ بإجابتها يعني الفتنة وما أخَّروها ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان.

﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ﴾ هم قوم من المنافقين غابوا عن وقعة بدر، ورأوا ما أعطى الله تعالى أهل بدر من الكرامة، فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي مسؤولاً عن الوفاء به، وجديراً بالوفاء.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنف، أو قتل سيف، في وقت معيّن سبق به القضاء ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإن نفعكم الفرار مثلاً، فتمتعتم بالتأخير، لم يكن ذلك التمتع إلا زماناً قليلاً، لأن الموت مآل كل حيٍّ.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾؟ أي من يَستطيع أن يمنعكم من الله عزَّ وجل، سواءً قدَّر هلاككم ودماركم، أم قدَّر بقاءكم ونصركم؟ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم الضرر.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ ﴾ أي المثبّطين للناس عن رسول الله ﷺ، وهم المنافقون ﴿ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ من منافقي المدينة الذين كانوا يقولون للأنصار: لا تقاتلوا وأسلموا محمداً إلى قريش ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ ﴾ وهذا يدل على أنهم عند هذا القول خارجون عن المعسكر ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ ﴾ أي الحرب والقتال ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إتياناً قليلاً، أو زماناً قليلاً، لأنهم يخرجون مع المؤمنين رياء، يوهمونهم أنهم معهم، ولا تراهم يبارزون ويقاتلون إلاّ شيئاً قليلاً، إذا اضطروا إليه.

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۚ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ أي بخلاء عليكم بالمعاونة، والشفقة، والنفقة في سبيل الله ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾ أي ينظرون نظراً كائناً كنظر المغشي عليه، من معالجة سكرات الموت، حذراً وخوفاً ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ ﴾ وحُرزت الغنائم ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ أي آذوكم ونالوا منكم ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أي خاطبوكم مخاطبة شديدة، وقالوا أعطونا قسمتنا، فإنا ساعدناكم، وقاتلنا معكم، والسَّلْقُ: البسطُ بقهر اليد، أو باللسان، وسَلَقه بلسانه خاطبه بما يكره ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ ﴾ على المال والغنيمة، يعني إنهم قليلو الخير في الحالتين، كثيرو الشر في الوقتين ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذُكر من صفات السوء ﴿ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ ﴾ في الحقيقة، بل بالألسنة ﴿ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ ﴾ أي أبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم ﴿ وَكَانَ

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيِّناً وسهلاً على الله، لأنها فقدت عنصر الإخلاص لأنها كبناءٍ على غير أساس.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي هؤلاء لجبنهم، يظنُّون أنَّ الأحزاب لم ينهزموا ولذلك فرُّوا إلى داخل المدينة ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرَّة ثانية ﴿يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي تمنَّوا أنهم خارجون إلى البدو، حاصلون بين الأعراب ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كل قادم من جانب المدينة ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ عما جرى عليكم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ هذه الكرة ولم يرجعوا ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياء أو خوفاً منكم.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي خصلةٌ حسنةٌ حقها أن يُؤْتَسَىٰ بها ويقتدى -في جهاده، وإخلاصه، وصبره ﷺ-، كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد، بل هو في نفسه قدوة يحقُّ أن يتأسَّى به ﷺ ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي ثوابه أو لقاءه، والرجاءُ يحتمل الأمل والخوف ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي أكثر من ذكر ربه، بلسانه وقلبه، في الخوف والرجاء، والشدة والرخاء.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ بيان لما صدر عن خُلَّص المؤمنين، بعد حكاية ما صدر عن المنافقين، أي ولمَّا شاهدوهم ﴿قَالُوا هَٰذَا﴾ مشيرين إلى ما شاهدوه من كثرة الأعداء، وشدة البلاء ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ﴾ الآية، وقوله ﷺ: «سيشتدُّ الأمرُ باجتماع الأحزاب عليكم» ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي ظهر صدقهما في البلاء والنصرة، والثواب، وإظهار الاسم الجليل للتعظيم، وهو في مقابلة قول المنافقين: ﴿مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقولهم: ﴿وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ﴾ ليس إشارة إلى ما وقع، فإنهم كانوا يعرفون صدق الله ورسوله، قبل الوقوع، وإنما هي إشارة إلى بشارة صدق الله تعالى لهم، في جميع ما وعد، مثل فتح مكة، وفتح الروم، والانتصار في بدر، فيقع الكل ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ أي ما رأوه من كثرة الأحزاب ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره، ومقادره.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ من الثبات مع الرسول ﷺ في الحروب، والمقاتلة لأعداء الله، وطلب الشهادة، ومعنى ﴿صَدَقُوا﴾ أتوا بالصدق، وهم رجال من الصحابة رضوان الله عليهم ثبتوا وقاتلوا مع الرسول ﷺ حتى استشهدوا ﴿فَمِنْهُم﴾ تفصيل لحال الصادقين ﴿مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي مات أو قتل في سبيل الله، والنَّحْبُ: النَّذر، استُعير للموت، لأنه كنذرٍ لازم في عُنق المسلم، كحمزة، ومصعب بن عُمير، وأنس بن النضير رضي الله عنهم، فإنهم قد قضوا نذورهم واستشهدوا ﴿وَمِنْهُم﴾ أي بعضهم ﴿مَّن يَنتَظِرُ﴾ أي ينتظر الشهادة كعثمان، وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك، فإنهم مستمرون على نذورهم وهو الثبات مع الرسول ﷺ والجهاد حتى الموت ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ عطف على صدقوا، أي ما

بدلوا عهدهم ﴿تَبْدِيلًا﴾ بل ثبتوا على العهد، مراعين فيه عزة المسلم، وفيه تعريضٌ بأهل النفاق، ومرضى القلوب.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾ متعلق بمضمر كأنه قيل: وقع جميع ما وَقَع ليجزي الله ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي بما صدر عنهم من الصدق والوفاء، قولاً وفعلاً ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بما صدر عنهم من الأعمال والأقوال ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبهم وإنما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل اليأس من إيمانهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي لمن تاب وأناب، وفيه بعث إلى التوبة.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ﴾ شروع في حكاية بقية القصة، وتفصيل تتمة النعمة، أي وردَّ الله الأحزاب خائبين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ﴾ أي لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي غير ظافرين بخير القتال ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي لم يحوجهم إلى القتال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداث كل ما يريد ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً على كل شيء.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي عاونوا الأحزاب ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو قريظة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي من حصونهم العتيدة، وهي ما يُتحصن به

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ أي الخوف الشديد، بحيث أسلموا أنفسهم للقتل، وأهلهم وأولادهم حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ من غير أن يكون من جهتهم حِراك، فضلاً عن المخالفة، روي أنَّ جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ، صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة، ووضعوا السلاح، فقال له: أتنزع السلاح أنت وأمتك، والملائكةُ ما وضعوا السلاح!! إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، وأنا عامدٌ إليهم فمزلزل بهم الحصون فأذِّن في الناس أن لا يصلُّوا العصر إلاَّ ببني قريظة، فحاصرهم ﷺ إحدى وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، فقال ﷺ: تنزلون على حكمي، فأبوا، فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فحكم سعد بقتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم ونسائهم، فقال له ﷺ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبع سماواته»!!. فذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ ﴾ يعني وأورثكم أرضاً لم تقبضوها بعدُ، وهي خيبر لأنها فُتحت بعد قريظة، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ أي قادراً على كل ما أراد، فقد شاهدتم بعض مقدوراته جلَّ وعلا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي السعة والتنعم فيها ﴿ وَزِينَتَهَا ﴾ وزخارفها ﴿ فَتَعَالَيْنَ ﴾ أي أقبلن باختياركن لأحد الأمرين ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ أعطكن المتعة، وتستحب لكل مطلقة ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ ﴾ أي

أطلقكُنَّ ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي طلاقاً من غير ضِرار وبدعة، روي أنهن سألن النبي ﷺ ثياب الزينة، وزيادة النفقة، فنزلت، وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فأذن له، فوجد رسول الله ﷺ جالساً وحوله نساؤه واجماً ـ ساكتاً ـ فقال: لأقولن شيئاً أضحك به النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله: لو رأيتَ بنت خارجة ـ يعني زوجة عمر ـ سألتني النفقة ـ أي طلبت مني التوسعة في الإنفاق ـ فقمتُ إليها فوجأتُ عنقها، فضحك النبي ﷺ فقال: هنَّ حولي كما ترى يسألن النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة فوجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة فوجأ عنقها، وكلاهما يقولان: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟ قلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده، ثم اعتزلهن شهراً حتى نزلت هذه الآية، فقال: يا عائشة إني أريد أن أعرِض عليك أمراً، أحبُّ أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية قالت: أفيك أستشير أبويَّ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة»[1].

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي تردن الرسول ﷺ، وذكرُ الله للإيذان بجلالة قدره ﷺ عنده تعالى ففي مرضاة الرسول رضي الله سبحانه وتعالى ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي نعيمها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ بمقابلة إحسانهن ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادر قدره وهي الجنة التي فيها ما لا عين

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الطلاق رقم ١٤٧٨.

رأت ولا أذن سمعت، و«مِنْ» للتبيين، لأنهن كلهن محسنات رضوان الله عليهن[1].

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾ بكبيرة ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ ظاهرة القبح، والمراد منها كل ما اقترفن من الكبائر، وقيل: عصيانهن لرسول الله ﷺ، ونشوزهن وطلبهن منه ما يشقُّ عليه ﷺ، والغرض مجردُ التحذير لا أن منهنَّ من أتت بفاحشة، فإنَّ الله تعالى صان أزواج الرسول ﷺ عن القبائح ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي يعذَّبْنَ ضعفي العذاب لغيرهن، أي مثليه، لأن الذنب منهن أقبح، فإن زيادة القبح تابعة لزيادة فضل المذنب، والنعمة عليه، ولذلك جُعل حدُّ الحر ضعف حدّ الرقيق، وعُوتب الأنبياء عليهم السلام بما لا يعاتب به الأمم، وكون ذلك يسيراً على الله، أي لا يمنعه عن التضعيف كونها من نساء النبي ﷺ، بل يدعوه إليه لمراعاة حقه ﷺ.

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي ومن يدم على

---

(١) سبب نزول آية التخيير أن النبي ﷺ لما نصره الله في غزوة الأحزاب، وفرَّق عنه جموع المشركين، وفتح عليه قريظة والنضير، ظنَّ أزواجه أنه اختصَّ بنفائس اليهود وذخائرهم، وخشين أن يوزعها بين المسلمين، فقعدن حوله وقلن يا رسول الله: بنات كسرى وقيصر في الحُليِّ والحُلل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق!! وآلمن قلبه ﷺ بهذه المطالبة وبهذه الكلمات، فنزلت آية التخيير.

الطاعات ﴿نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مرة على الطاعة والتقوى، ومرة على طلبهنَّ رضاء رسول الله، بالقناعة، وحسنِ المعاشرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الجنة، زيادة على أجرها المضاعف، أي رزقاً مرضياً جليل القدر.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء، في الفضل والشرف ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ أي اتصفتنَّ بالتقوى كما هو اللائق بحالكنَّ ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي لا ترققن الكلام أمام الرجال، ولا تجبن بالكلام الرقيق الليّن، على سنن المريبات الفاجرات[1] ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي فجور وريبة ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي بعيداً عن الريبة بجدٍّ وخشونة.

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) إذا كان القرآن الكريم يمنع المسلمة، أن تتلاين في كلامها مع الرجال الأجانب، لئلا يطمع بها الفُسَّاق والفُجَّار، فكيف بمن تثير الغرائز والكوامن، بالغناء الماجن الخالي من العفة، الذي كله ميوعة وانحلال، ودعوة إلى العهر والفجور، وتختلط فيه أصوات المغنّين والمغنّيات مع آلات الموسيقى والطرب، في الحفلات الساهرة الداعرة، وتنقله الإذاعة والتلفاز، ثم نسمع من بعض أدعياء العلم من يبيح ذلك، بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة، وأن غناء المرأة ليس بحرام!! إذاً فما هو الحرام في نظرهم؟ اللهم إنا نعوذ بك من شر هذا الزمان، الذي فسق فيه كثير من الشبان، وطغت فيه النساء وجاوزن حدَّ الاحتشام، وأصبح فيه المنكر معروفاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي الزمْنَ بيوتكن يا نساء النبي، ولا تتسكعن في الطرقات، وأصله اقرَرْنَ، يقال: قرَّ الشيءُ أي استقرَّ بالمكان وثبت فيه ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ أي لا تتبخترن في مشيكنَّ، وهو التكسُّرُ والتغنُّج، والتبختر، وإظهار الزينة والمحاسن للرجال ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ أي مثل تبرج نساء الجاهلية قبل الإسلام، فقد كانت المرأة تلبس درعاً من اللؤلؤ، فتمشي وسط الطريق، تعرض نفسها على الرجال ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ أمَر بهما لفضلهما على غيرهما، وكونهما أصليْ الطاعات البدنية، والمالية ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في كل الأمور والأحوال، لا سيما فيما أُمرتنَّ به، ونُهيتنَّ عنه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي الذنب المدنِّس لعرضكم، وهو تعليلٌ لأمرهنَّ ونهيهنَّ ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي يا أهل بيت النبي ﷺ، مراداً بهم من حواهم بيت النبوة ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ من أوضار الأوزار والمعاصي ﴿تَطْهِيرًا﴾ بليغاً، فعِرضُ المقترف للإثم يتلوث كما يتلوث بدنه بالأرجاس، وهذه الآية ـ كما ترىٰ ـ آيةٌ بينة، على كون نساء النبي ﷺ أهل بيته، وقاضية ببطلان رأي الشيعة في تخصيصهم «أهل البيت» بفاطمة وعلي، وابنيهما رضي الله عنهم، وما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج النبي ﷺ ذات غَدَاة، وعليه مِرْطٌ مُرَجَّلٌ [1] من شعر أسود، فجلس فأتت فاطمة فأدخلها فيه، ثم جاء علي فأدخله فيه، ثم جاء الحسن فأدخله فيه، ثم جاء الحسين فأدخله فيه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ إنما يدلُّ على كونهم من أهل البيت، لا على أن ما عداهم ليسوا كذلك، والنصُّ في القرآن قاطع.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) أي كساء أسود فيه بعض النقوش، والحديث أخرجه مسلم.

﴿ وَٱذْكُرْنَ ﴾ أي اذكرن للناس بطريق العِظَة والتذكير ﴿ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله للدلالة على صدق النبوة، وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع، وهو تذكير لهنَّ بما أنعم الله عليهنَّ، حيث جعلهن أهل بيت النبوة، ومهبط الوحي، وما شاهدنه من أنوار الوحي، مما يوجب قوة الإيمان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا ﴾ عالماً بغوامض الأشياء ﴿ خَبِيرًا ﴾ عالماً بحقائقها، وبواطنها، يعلم ما يصلح في الدين، ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته ﷺ.

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ۙ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ الداخلين في الإسلام، المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والإناث ﴿ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ المصدِّقين بما يجب أن يُصدَّق به من الفريقين ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾ أي المداومين على الطاعات، القائمين بها ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ في القول والعمل ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾ على الطاعات وعن المعاصي ﴿ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾ المتواضعين بقلوبهم، وجوارحهم ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾ بما يجب في مالهم ﴿ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ ﴾ الصوم المفروض فرضاً، ونفلاً ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾ عن الحرام ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم ﴾ بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة ﴿ مَّغْفِرَةً ﴾ لما اقترفوا من الصغائر،

لأنهن مكفرات بها ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على ما صدر عنهم من الطاعات، والآية وعدٌ لهن، أي لنساء النبي ﷺ ولجميع المؤمنين والمؤمنات، عن أم عُمارة الأنصارية قالت: «أتيتُ النبي ﷺ فقلت: مالي أرى كلَّ شيء إلى الرجال، وما أرى النساء يُذكرن بشيء؟ فنزلت: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾ الآية»[1].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ أي وما صحَّ وما استقام لرجل من المؤمنين، ولا لمرأةٍ من المؤمنات ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أي إذا قضى رسول الله، وذكرُ الله للتعظيم وللإشعار بأن قضاءه ﷺ قضاءُ الله تعالى، نزلت هذه الآية في «زينب بنت جحش» بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة، فأبت هي وأخوها عبد الله فنزلت، فلما سمعا الآية رضيا، وجعلت أمرها بيد رسول الله ﷺ، فأنكحها زيداً وساق رسول الله ﷺ إليها مهراً عشرة دنانير، وخماراً، ودِرْعاً، وملحفة ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه ﷺ ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في أمر من الأمور، ويعمل برأيه ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ طريق الحق والسعادة ﴿ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ بين الانحراف عن سنن الصواب، لأن ردَّ أمر النبي ﷺ ضلال وفسق.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٣٢٠٩ في كتاب التفسير وقال: حديث حسن غريب.

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ أي اذكر وقت قولك ﴿لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقك لحسن تربيته ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ من فنون الإحسان، التي من جملتها تحريره وعتقه وهو «زيد بن حارثة» تبناه رسول الله ﷺ قبل النبوة، ثم أعتقه وزوّجه بزينب رضي الله عنها فكانت تتكبر عليه فجاء ذات يوم إلى الرسول ﷺ وقال له: أريد أن أفارق صاحبتي، فقال ﷺ له: مَا لَكَ أرابك منها شيء؟ قال: لا والله، ما رأيتُ منها إلاَّ خيراً، ولكنها لشرفها تتعظَّم عليَّ فقال له ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمرها فلا تطلقها تعللاً بتكبرها ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي وتضمر في نفسك ما سيظهره الله من رغبة الزواج بها بعد أن يطلقها؟ وأصحُّ ما في هذا الباب ما رُوي عن سفيان بن عُيَيْنة عن علي بن زيد قال: سألني زين العابدين «علي بن الحسين» قال: ما يقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وتُخْفِي في نَفْسِكَ﴾ الآية فقال علي بن الحسين إن الله عزَّ وجلَّ قد أعلمه أنها ستكون من أزواجه، وأن زيداً سيطلقها، فلما جاء زيد وقال ما قال، وقال ﷺ لزيد: ﴿أَمسِك عَلَيكَ زَوجَكَ﴾ فعاتبه الله تعالى، وقال: لم قلت: أمسكْ وقد أعلمتُك أنها ستكون من أزواجك؟ وهذا أولى وأليق لشأن الرسول ﷺ، وهو مطابق للتلاوة أيضاً، لأن الله تعالى أعلم أنه سيبدي ويُظهر ما أخفاه، ولم يُظهر غير تزويجها منه، فقال تعالى: ﴿زَوَّجناكَهَا﴾ فلو كان الذي أضمره ﷺ إرادة طلاقها وتزويجها منه، كما قيل لكان يظهر ذلك، لأنه لا يجوز أن يُخبر أنه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره، فدلَّ على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون زوجته، وإنما أخفى ذلك رسول الله ﷺ حياءً، لأنه كم من شيء يتحفظ الإنسان منه، ويستحي من اطلاع الناس عليه، وهو في نفسه مباحٌ وحلال!! وكم من أمرٍ لا عيب فيه عند الله، وربما كان الدخول في ذلك المباح سُلَّماً إلى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين، كإبطال حكم التبنّي وهو إنما جعل الله طلاق زيد لها، وتزويج النبي ﷺ إياها، لإزالة حرمة التبني، وإبطال تشريعه الجاهلي كما قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾

وأما ما ذكره بعض الجهلاء في تفسير هذه الآية، من وقوع محبتها في قلب النبي ﷺ، عندما رآها، وإرادته طلاق زيد لها، فيه أعظم الخطأ، ونسبة ما لا يليق بمنصبه ﷺ من مدِّ عينيه لما نُهي عنه من زهرة الحياة الدنيا ﴿لا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾ وإقدامٌ عظيم من قائله، وقلةُ معرفته بحق النبي ﷺ وبفضله، وكيف يقال رآها فأعجبته، وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت، والحال أنها رضيت له ﷺ قبل تزويج نفسها لزيد، ولو أعجبته لتزوجها في هذا الوقت، ولم يزوجها لزيد، فدعوى وقوع محبتها في قلب النبي ﷺ دعوى باطلة مكذوبة، وهي من دسائس أعداء الإسلام، والله عزَّ وجلَّ فعل كما أراد، وكان كما يشاء، ولا رادَّ لأمر الله وحكمه ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ تعييرهم إياك بنكاح مطلقة دعيِّه ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وحده، ليس هذا إشارة إلى أن النبي ﷺ خشي الناس، ولم يخشَ الله، بل المعنى: اللهُ أحق أن تخشاه وحده، ولا تخشَ أحداً معه، وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضاً، فاجعل الخشية له وحده كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ ولاَ يَخْشَوْنَ أَحَدَاً إلاَّ الله﴾ قال عمر وابن مسعود وعائشة: ما نزلت على رسول الله ﷺ آيةٌ هي أشد عليه من هذه الآية، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لو كَتَم رسولُ الله ﷺ من الوحي شيئاً لكتم هذه الآية»[1] ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي حاجةً، فإذا بلغ البالغُ حاجته من شيء له فيه هِمَّة، قيل: قضى منه وطره، والوَطَرُ: الحاجةُ، والمعنى: فلمَّا لم يبق لزيد فيها حاجةٌ، أي طلَّقها وانقضت عدَّتُها، وذكر قضاء الوطر ليعلم أن زوجة المتبنَّىٰ تحلُّ بعد الدخول بها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ المراد بتزويجها منه ﷺ جعلها زوجته بلا واسطة عقد، ويؤيد هذا ما روي أنها كانت تقول لنساء النبي ﷺ: إن الله تولَّى نكاحي، وأنتن زوجكُنَّ أولياؤكنَّ ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق ومشقة ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٠٥.

في حقِّ تزوجهن، فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة، وفيه دلالة على أن حكمه ﷺ وحكم الأمة سواء، وإشارة إلى أن هذا التزويج منه ﷺ لم يكن لقضاء الشهوة، بل لبيان حكم من أحكام الشريعة الغراء بفعله عليه السلام ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي ما يريد تكوينه من الأمور ﴿مَفْعُولًا﴾ محتَّماً مكوَّناً لا محالة، فقد زوَّجك الله بها، وأبطل حكم التبنِّي بهذا التشريع الإلهي.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما صحَّ وما استقام في الحكمة، أن يكون على الرسول ضيق ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ﴾ أي فيما قسم له وأمر له وقدَّر، من قولهم فرض له في الديوان كذا، وفرض القاضي النفقة: قدَّرها، والمراد به هو نكاح زينب، وتعدد النساء، وغيره ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي سنَّ الله ذلك سنة، والسُّنَّةُ: الطريقة والسيرةُ الحميدة جمعها سُنَن، مثل غُرْفة وغُرَف ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ أي مضوا ﴿مِن قَبْلُ ۚ﴾ من الأنبياء عليهم السلام، حيث وسَّع عليهم في باب النكاح وغيره ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي قضاءً مقضيًّاً، وحُكماً مبتوتاً.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفة للذين خلوا ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ أي يخافونه في كل ما يأتون وما يذرون، لا سيما في أمر التبليغ، حيث لا ينقصون حرفاً، ولا تأخذهم في ذلك لومة لائم ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ﴾ أي ولا يخافون أحداً سواه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي كافياً للمخاوف، فينبغي أن لا يُخشى غيرُه.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ أي على الحقيقة، حتى يثبت بينَه وبينَه ما يثبت بين الأب وولده، من حرمة المصاهرة وغيرها، نزلت لما تزوج رسول الله ﷺ زينب، قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه فنزلت هذه الآية تأكيداً لإبطال شريعة التبني ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي ولكنْ كانَ رسولَ الله، وكلُّ رسولٍ أبٌ لأمته، لكنْ لا حقيقةً بل مجازاً، بمعنى أنه شفيقٌ، ناصح لهم كالوالد، وسبب لحياتهم الأبدية، لا ولادة بينهم وبينه ﷺ، وزيد منهم، وليس للتبني حكم شرعي كحكم الأبناء ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ أي كان آخرهم الذي ختموا به، فهو خاتمهم وأفضلهم على الإطلاق، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مَثَلي ومَثَلَ الأنبياء من قبلي، كمَثَل رجلٍ بنى بنياناً، فأحسنه وأجملَه، إلا موضع لَبِنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون ويتعجبون، ويقولون: هلاَّ وُضعت هذه اللَّبنة؟ فأنا اللَّبِنة، وأنا خاتم النبيين»[1] ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ بما هو أهله من التهليل، والتحميد،

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٤٠٧ ومسلم رقم ٢٢٨٧.

(٢) فإن قيل: كيف يكون خاتم النبيين، وعيسى عليه السلام سينزل بعده كما ثبت في الصحيحين؟ فالجواب أن عيسى نبيٌّ قبله، وحين ينزل في آخر الزمان يحكم بشريعة محمد ﷺ لا بشريعته، فيبقى نبينا خاتم النبيِّين، ومعنى الآية لا يتنبأ نبي بعده ولا ينزل الوحي على أحد بعده، والله أعلم.

والتقديس ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ يعم الأوقات والأحوال، فالذكر يحي القلوب، كما تحيا الأرض بالمطر.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ نزّهوه عما لا يليق به ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي أول النهار، وآخره، واللفظ إشارة إلى المداومة على الذكر، كأنه قال: سبحوا ربكم دائماً وأبداً، في الليل والنهار، والصباح والمساء.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي يعتني بكم بالمغفرة، والتزكية، والرحمة، وهو استئناف جارٍ مجرى التعليل لما قبله، وتحريض للمؤمنين على الذكر والتسبيح، فإن صلاته تعالى ـ مع عدم استحقاقهم لها ـ ممَّا يوجب عليهم المداومة من ذكره تعالى، وتسبيحه ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي وملائكته يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا..﴾[1] الآية. والمراد بصلاة الله والملائكة معنى عام مجازي، هو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاحهم، ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي يعتني بأموركم هو وملائكته، ليخرجكم من ظلمات الكفر والعصيان، إلى نور الإيمان والعرفان ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي كان بكافة المؤمنين رحيماً، وفيه بشارة لجميع المؤمنين، وإشارة إلى أن الآية غير مختصة بالسامعين وقت الوحي.

---

(١) سورة المؤمن، آية: ٦.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحية الله لهم ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي يوم لقائه عند البعث، أو عند دخول الجنة ﴿سَلَٰمٌ ۚ﴾ تسليم من الله عزَّ وجلَّ، تعظيماً لهم، أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[1] الآية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي هيأ لهم جزاءً حسناً، وهو دخول الجنة، وما فيها من النعيم المقيم الخالد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على من بُعثت إليهم، تراقب أحوالهم، وتشاهد أعمالهم، وتؤديها يوم القيامة فيما لهم وما عليهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالجنة للأبرار ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالنار للكفَّار الفُجَّار.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى الإقرار به، وبوحدانيته، وبسائر ما يجب الإيمان به ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بتيسيره وأمره سبحانه وتعالى، لا من تلقاء نفسك ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ يستضاء به في ظلمات الجهل، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وبَشِّر المؤمنين منهم خاصة ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ على مؤمني سائر الأمم، في الرتبة والشرف.

---

(١) سورة الرعد، آية: ٢٣.

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ الجاحدين وحدانية الله المتظاهرين بالإسلام كذباً وزوراً، لا تطعهم فيما يدعونك إليه، من المساهلة والملاينة في أمر الدين ﴿ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ الآية نهي عن مداراتهم في أمر الدعوة، والمسامحة في الإنذار ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ أي لا تبال أذيتهم لك، بسبب تصلبك في الدعوة والإنذار، فالله يصرف عنك ضررهم ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ في كل ما تأتي وما تذر فإنه تعالى يكفيك ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ موكولاً إليه الأمور، في كل الأحوال.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ أي تجامعوهنَّ، والخلوة الصحيحة كالجماع ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ ﴾ بأيام يتربصن فيها بأنفسهن ﴿ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ أي تستوفون عددها، والإسناد إلى الرجال، للدلالة على أن العدة حق الأزواج، كما أشعر به قوله: ﴿فما لكم﴾ وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن من شأنه أن لا ينكح إلا مؤمنة، وأن يتخير لنطفته امرأة صالحة ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أي إن لم يكن مفروضاً لها في العقد، فإن الواجب لها حينئذٍ نصف المفروض دون المتعة، فإنها مستحبة عندنا، وقيل: إنها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ ﴾ أي أخرجوهنَّ من منازلكم ﴿ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ من غير ضرار، ولا منع حق.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي مهورهن فإنها أجور الأبضاع، وإيتاؤها ليس لتوقف الحل عليه، لأنه يصح العقد بلا تسمية، ويجب مهر المثل، بل لإيثار الأفضل والأولى له ﷺ ﴿ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ﴾ أي وأبحنا لك النساء اللاتي تملكهن بطريق الغنيمة «المملوكات» في الحرب ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ ﴾ ويحتمل تقييد الحل بذلك في حقه ﷺ خاصة، ويعضده قول أم هانىء بنت أبي طالب: «خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله تعالى هذه الآية، فلم أحلَّ له لأني لم أهاجر معه» ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً ﴾ أي وأحللنا لك أيضاً امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك ﴿ إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا ﴾ أي إن ملَّكته نفسها بطريق الهبة، وأراد الرسول ﷺ نكاحها بدون مهر، وهذه من خصائصه ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ ﴾ أي خاصة لك يا محمد، فلا تصح الهبة في النكاح لغيرك ﴿ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ ﴾ أي إن الإحلال المذكور، غير متحقق في حقهم، وإنما المتحقق في حقهم الإحلال بمهر المثل ﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي على المؤمنين ﴿ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ ﴾ أي في حقهن من شرائط العقد وحقوقه، ما لم يفرض عليه ﷺ، تكرمة له، أي قد علمنا ما ينبغي أن يفرض عليهم في حق أزواجهم ﴿ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ ﴾ أي ما أوجبنا من الأحكام في ملك اليمين بالشراء وغيره من وجوه الملك، وخَصَصناك

ببعض الخصائص توسعةً عليك ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما يعسُر التحرُّز عنه ﴿رَّحِيمًا﴾ ولذا وسَّع الأمر في الحرج.

﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي تؤخّرها وتترك مضاجعتها ﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ أي تضمُّ ﴿إِلَيْكَ﴾ أو تطلّق من تشاء منهن، وتمسك ﴿مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ أي طلبت بالرَّجْعة ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ﴾ في شيء ممَّا ذُكر، وهذه قسمة جامعة، لأنه ﷺ إما أن يُطلّق أو يمسك، فإذا أمسك ضاجع أو ترك، وإذا طلَّق فإما أن يخلي أو يبتغيها. وقد كانت التسوية بينهنَّ في القسْم، واجبة عليه ﷺ، فلما غار بعضهن على النبي ﷺ، نزلت هذه الآية وسقط عنه الوجوب، وصار الاختيار إليه فيهن، يفعل كيف يشاء، وكان ذلك من خصائصه ﷺ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذُكر من التفويض إليه ﷺ ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي أقرب إلى قرَّة عيونهن، ورضاهنَّ، فإن سوَّيْتَ بينهن وجدن ذلك تفضلاً منك، وإن رجَّحت بعضهنَّ، علمن أنه بحكم الله تعالى، فتطمئن نفوسُهنَّ به ﴿وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ﴾ من الضمائر والخواطر فاجتهد في إحسانها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ فيعلم ما تُبدونه وتخفونه ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي من بعد هؤلاء التسع، اللاتي خيرتهن

فاخترنك، ورضاهن بما آتيتهن ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ أي تتبدل ﴿بِهِنَّ﴾ أي بهؤلاء التسع، بأن تطلق واحدة منهن، وتنكح مكانها أخرى ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي حسن الأزواج المستبدلة ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي لا بأس أن تبادل بجاريتك ما شئتَ، فأمَّا الحرائر فلا، وأراد الله بذلك لهن كرامة، وجزاءً على ما اخترن ورضين، عندما نزلت آية التخيير وهن التسع اللاتي توفي ﷺ عنهن، وهنَّ «عائشة بنت أبي بكر» و «حفصة بنت عمر» و «أم حبيبة بنت أبي سفيان» و «سودة بنت زمعة» و «صفية بنت حُيَيّ»، و «ميمونة بنت الحارث»، و «زينب بنت جحش» و «رملة بنت أبي سفيان» و «جويرية بنت الحارث» رضوان الله عليهن ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ حافظاً ومهيمناً وهو تحذير عن مجاوزة حدوده تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ شروع في بيان ما يجب مراعاته على الناس، من حقوق النبي ﷺ، إثر بيان ما يجب مراعاته من الحقوق المتعلقة بهنَّ ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ استثناء مفرَّغ من أعم الأحوال أو من أعم الأوقات، أي لا تدخلوها في وقت من الأوقات، إلاَّ وقت أن يؤذن لكم ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ أي إلا أن تدعوا إلى طعام، وفيه إشعارٌ بأنه لا ينبغي المجيء على الطعام بغير دعوة، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي غير منتظرين وقت نُضجه وإدراكه ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾

أي إذا دعيتم إلى وليمة وأُذن لكم في الدخول فادخلوا، وفيه دلالة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ أي فتفرَّقوا ولا تمكثوا فتثقلوا على أهل المنزل، وهو خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي وغير جالسين بعد الطعام، ليستأنس بعضكم لحديث بعض ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ أي ذلك الاستئناس واللبث الذي تفعلونه ﴿كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ بتضييق المنزل عليه وعلى أهله، وصده عن الاشتغال بما يعينه ﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ أي من إخراجكم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا يترك تأديبكم، وهذا أَدَبٌ أَدَّبَ الله به الثقلاء، فوردت الآية جامعة لآداب الضيافة والوليمة، روى الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أُنزل، وكان أول ما نزل في متبنَّى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، حين أصبح النبي ﷺ بها عروساً، فدعا القوم فأصابوا من الطعام، ثم خرجوا، وبقي رهطٌ عند النبي ﷺ، فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا فمشى النبي ﷺ ومشيت معه، حتى جاء عَتَبة حجرة عائشة رضي الله عنها، ثم ظنَّ أنهم قد خرجوا فرجع ورجعتُ معه حتى إذا دخل على زينب، فإذا هم جلوسٌ لم يقوموا، فرجع النبي ﷺ ورجعت حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظنَّ أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعتُ معه، فإذا هم قد خرجوا، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه بالستر وأنزل الله آية الحجاب[1]، وهي هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الضمير لنساء النبي ﷺ المدلول عليهن بذكر بيوته ﷺ ﴿مَتَٰعًا﴾ أي شيئاً يُتمتَّع به ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ أي المتاع ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي سترٍ، فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله متنقبة كانت أو غير متنقبة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي سؤال المتاع من وراء

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٤٠٥ ومسلم رقم ١٤٢٨ في النكاح، باب زواج النبي ﷺ بزينب.

الحجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ أي أكثر تطهيراً من الخواطر الشيطانية ﴿وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ أي وما صحَّ وما استقام لكم ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي أن تفعلوا في حياته فعلاً يكرهه ويؤذيه ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ الآية ردٌّ عن من قال: لئن مات محمد، لأتزوجنَّ فلانة يعني إحدى زوجاته، فنزلت ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر، من إيذائه، ونكاح أزواجه من بعده ﷺ، ﴿كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي أمراً عظيماً وخطأً جسيماً، وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله، وإيجاب حرمته حياً وميتاً، ما لا يخفى.

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا﴾ مما لا خير فيه كنكاحهن على ألسنتكم ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم على المعاصي البادية والخافية، وفيه مزيد تهويلٍ، ومبالغةٌ في الوعيد.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ روي أنه لما نزلت آية الحجاب، قال الآباء والأبناء يا رسول الله أو نكلمهن أيضاً من وراء الحجاب، فنزلت وإنما لم يذكر العم الخال لأنهما بمنزلة الوالدين، ولذلك سمي العم وأباً في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ والمراد من ﴿نِسَائِهِنَّ﴾ أي النساء المؤمنات، وإنما قال نسائهن لأنهن من أجناسهنَّ ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من العبيد، والإماء، وقيل: من الإماء خاصة ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ فيما

أُمرتنَّ به ونُهيتُنَّ عنه، لا سيما عند العبيد، وفيه دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ أي لا تخفى عليه خافية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ أي يعتنون بإظهار شرفه، وتعظيم شأنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ أي اعتنوا أنتم أيضاً بذلك، فإنكم أولى به ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أي قائلين: اللهمَّ صلِّ على محمد وسلِّم، أو نحو ذلك، والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقاً، من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه، وقيل: يجب ذلك كلَّما جرى ذكرُه، والمعتمد قولُ الكرخي قال: إنها واجبة مرة، وأمَّا كلما ذُكر فمستحبة، أفاده في مجمع الأنهر. وأما في الصلاة في التشهد فهي واجبة، وقد سأل بعض الصحابة الرسول عن كيفية الصلاة والسلام عليه فقال: قولوا «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وإفراد الغير بالصلاة من أهل البيت فمكروه، وهو من شعائر الروافض، كقولهم: عليٌّ عليه الصلاة والسلام، لأنه شعار ذكر الرسول ﷺ، ولذا كُره أن يقال: محمدٌ عزَّ وجلَّ، مع كونه عزيزاً وجليلاً، بل يكتفى بقول محمد ﷺ أو عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أريد بالإيذاء في حق الله تعالى، وصفُه

بما لا يليق به جلَّ وعلا، كنسبة الزوجة والولد، وفعل ما يكرهه من الكفر، والمعاصي، لاستحالة حقيقة التأذي في حقه تعالى، وقيل هو كقول اليهود: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقول النصارى ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وقول المشركين: الملائكة بناتُ الله، والأصنام شركاؤه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأمَّا إيذاء الرسول فهو قولهم: شاعر، مجنون، ساحر، وطعنهم في نكاح صفية، وزينب، والنيل منه ﷺ بالقدح والذم ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ بحيث لا ينالون فيهما شيئاً من الرحمة والهداية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يهينهم ويذلهم مع الإيلام الشديد.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي يقولون فيهم ما يتأذَّوْن به، من قول أو فعل، وتقييده بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي بغير جناية يستحقون بها الأذية، للإيذان بأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حقٍّ، وأما أذى هؤلاء، فمنه ما هو حقٌّ كالحدِّ والتعزير، ومنه ما هو باطل ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي ظاهراً بيناً، نزلت في أهل الإفك، وقيل: في الفساق الذين يتبعون النساء، إذا برزن للحاجة، والظاهر العموم، وإذا كان لا يحل لك أن تؤذي كلباً، أو خنزيراً، فكيف إيذاء المؤمنين والمؤمنات؟.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾

بعدما بيَّن سوء حال المؤذين أمر النبي ﷺ بأن يأمر زوجاته وبناته وسائر نساء المؤمنين، بالتستر والاحتشام، ليدفع عنهن ألسنة الفسقة اللئام، فقال سبحانه: ﴿قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ أي يغطِّين بها وجوههن، والجلباب هو الرداء الذي يستر جميع بدن المرأة، كالملحفة والعباءة التي تشتمل بها المرأة، وكل ما يُستتر به، أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن، إذا برزن لداعية من الدواعي ﴿ذلك﴾ أي ما ذكر من التغطي ﴿أدنى﴾ أي أقرب ﴿أن يعرفن﴾ أي يعرفن أنهن حرائر وعفائف، فلا يتبعهن الفجار، ويمكن أن يقال: المراد يعرفن أنهن لا يزنين، لأن من تستر وجهها، مع أنه ليس بعورة، لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها، فيعرفن أنهن مستورات لا يمكن الزنا بهن ﴿فلا يؤذين﴾ من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن ﴿وكان الله غفورا﴾ لما سلف منهن من التفريط ﴿رحيما﴾ بعباده حيث يراعي مصالحهم بتشريع ما يحفظ كرامتهم.

﴿۞ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿۞ لئن لم ينته المنافقون﴾ عما هم عليه من النفاق ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ أي فجور وهم الزناة ﴿والمرجفون في المدينة﴾ من الفريقين من نشر أخبار السوء، وغير ذلك من الأراجيف الملفَّقة المستتبعة للأذية ﴿لنغرينك بهم﴾ أي لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم، ولنحرضنَّك على ذلك ﴿ثم لا يجاورونك﴾ أي ثم لا يساكنونك ولا يعودون إلى مجاورتك ﴿فيها﴾ في المدينة ﴿إلا قليلا﴾ أي زماناً قليلاً ريثما يتأهبوا للخروج.

﴿ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴿٦١﴾﴾.

﴿ملعونين﴾ نصب على الشتم أي مطرودين من رحمة الله عزَّ وجل

﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ أي أينما وُجدوا وأدركوا قُتّلوا تقتيلاً، لكفرهم ونشرهم أخبار السوء والفساد.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ في الأمم الماضية، وهي أن يقتل الذين نافقوا وعادَوُا الأنبياء، وسعوا في توهين أمرهم، بالإرجاف ونحوه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي ولن تتغير سنة الله أو تتبدَّل، بل يجريها بمجرى واحد في الأمم، وفي جميع الأزمان.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي عن وقت قيامها، كان المشركون يسألونه استعجالاً واستهزاءً ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي لا يطلع عليه ملكاً مقرَّباً، ولا نبياً مرسلاً ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أيْ أيَّ شيء يعلمك بوقت مجيئها؟ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾؟ أي شيئاً قريباً، وفيه تهديد للمستعجلين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ على الإطلاق، أي أبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿سَعِيرًا﴾ ناراً شديدة الاتقاد، يقاسونها في الآخرة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي مقيمين في نار جهنم أبد الآبدين، وهذا يردُّ على من زعم فناء النار، فإن قوله تعالى: ﴿أبداً﴾ يدل على الدوام والاستمرار ﴿ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا ﴾ يحفظهم ﴿ وَلَا نَصِيرًا ﴾ يخلصهم من عذاب الله.

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ أي يوم تصرف وجوههم فيها من جهة إلى جهة، كاللحم المشويّ يقلب على النار، وتخصيص الوجوه بالذكر، لما أنها أكرم الأعضاء، ففيه مزيد تفظيع، فإن الإنسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده، أو يطأطىء رأسه كي لا يصيب وجهه، ولذلك ذكر هنا الوجه تفظيعاً وتشنيعاً ﴿ يَقُولُونَ ﴾ متحسرين على ما فاتهم ﴿ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ فلا نبتلى بهذا العذاب.

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ عطف على يقولون وهو ضرب اعتذار للتشفي من الزعماء ﴿ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا ﴾ يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر، والتعبير عنهم بعنوان السيادة لتقوية الاعتذار وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة ﴿ وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ بما زينوا لنا من الأباطيل، وزيادة الألف لإطلاق الصوت وفائدتها الوقف.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ لأنهم ضلُّوا أو أضلوا، أي اجعل عذابهم مثل العذاب الذي نحن فيه مرتين ﴿ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ أي شديداً وعظيماً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ ﴾ نزلت في شأن زيد وزينب وما سمع فيه من مقالة الناس ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ ﴾ أي فأظهر براءته مما قالوا في حقه ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ ذا وجاهة ومنزلة عظيمة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ أي صدقاً وصواباً، قاصداً إلى الحق.

﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ .

﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ بالقبول، ويوفقكم للأعمال الصالحة ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ ﴾ أي يجعلها مكفَّرة، باستقامتكم في القول والعمل ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ ﴾ في الدارين ﴿ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ يعيشُ في الدنيا حميداً، وفي الآخرة سعيداً.

﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا ﴾ لمَّا بيَّن الله تعالى عِظَم طاعة الله ورسوله، عقب ذلك ببيان عظم شأن التكاليف الشرعية بطريق التمثيل، وعبَّر عنها بالأمانة، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد، وأمرهم بمراعاتها وأدائها، وعبَّر عن

اعتبارها بالنسبة إلى استعداد ما ذُكر من السماوات والأرض، بالعرض عليهنَّ لإظهار مزيد الاعتناء بأمرها، بالإباء والإشفاق منها، لتهويل أمرها وكأنها من الأجسام الثقيلة، التي تستعمل فيها القوى الجسمانية والمعنى: إن تلك الأمانة في عظم الشأن، بحيث لو كُلِّفت هاتيك الأجسام العظام، التي هن مَثَلٌ في القوة والشدة مراعاتها، وكانت ذوات شعورٍ، لأبَيْنَ قبولها، وأشفقن منها، والأمانة جميع ما أُمروا به ونُهوا عنه، وكان العرض تخييراً لا إلزاماً، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها، والجمادات كلُّها خاضعة لله، مطيعة لأمره، ساجدة له تعالى ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عند عرضها عليه، أي تكلَّفها والتزمها، مع ما فيه من ضعف البنية، ورخاوة القوة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ حيث لم يف بها، ولم يراعِ حقها ﴿جَهُولًا﴾ بكنه عاقبتها، وهذا وصفٌ للجنس باعتبار الأغلب.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي ليعذب الكفرة من أهل النفاق، والمشركين والمشركات عبَّاد الأوثان، الذين ضيَّعوا الأمانة بعدما قبلوها ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي ويرحم أهل الإيمان، ويعود عليهم بالتوبة والغفران، لأنهم حفظوا الأمانة، وراعوا حقها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ حيث تاب على فرطاتهم، وأثابهم على طاعتهم، فهو سبحانه الغفور الرحيم، البر الكريم، نسأله تعالى المغفرة والرضوان.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحزاب»

* * *

obeikandl.com

سُورَةُ سَبَإٍ

مكية وهي أربع وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جميع الموجودات له خلقاً، وملكاً، وتصرفاً فهو الخالق والمالك لكل ما في السموات والأرض. الجميع ملكه وتحت تصرفه وسلطانه، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته، ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ أي وله الحمد بأجمعه في الآخرة، لا يستحقه أحد سواه، لأنه المنعم المتفضل على عباده بأنواع النعم الجزيلة، والفرق بين الحمدين، مع كون نعمتي الدنيا والآخرة بطريق التفضل، الأول على نهج العبادة، والثاني على وجه التلذذ، وإنما يحمد أهل الجنة ربهم سروراً بالنعيم، بقولهم: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وعْدَهُ﴾ و ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدين والدنيا، ودبرهما حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطن الأشياء ومكنوناتها.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي يعلم سبحانه ما يدخل فيها من الغيث، والكنوز، والدفائن، والأموات والحبوب، ونحوها ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أي وما يخرج من الأرض من الزروع، والنباتات، والثمار، والمعادن، ومياه العيون والآبار ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ من الأمطار، والملائكة، والكتب الإلهية ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ ﴾ أي وما يصعد إليها من الملائكة، والأعمال الصالحات، والأرواح الطاهرات ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ﴾ للحامدين على ما ذكر من نعمه ﴿ ٱلْغَفُورُ ﴾ للمفرطين في ذلك بلطفه وكرمه.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ ﴾ أي وقال المشركون من كفار مكة: لا قيامة ولا بعث ولا نشور، وإنما عبروا عنه بقولهم ﴿ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾ لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها فاستبطأوا مجيئها بطريق الهزء والسخرية، كقولهم: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الوَعْدُ ﴾؟ ﴿ قُلْ بَلَىٰ ﴾ رد لكلامهم، أي قل لهم يا محمد مؤكداً ومحذِّراً ﴿ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ أي أقسم لكم بالله العظيم لتأتينكم الساعة، وهو تأكيدٌ له على أتم الوجوه ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ ﴾ أي هو سبحانه العالم بما خفي عن الأبصار، وغاب عن الأنظار، وفائدة اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذرٌ ما أصلاً، فإنهم يعرفون أمانته ﷺ ونزاهته عن وصمة الكذب، فضلاً عن اليمين الفاجرة، وإنما لم يصدّقوه، عناداً ومكابرة ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ أي لا يغيب عن الله ﴿ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ مقدار أصغر نملة ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي كائنة فيهما ﴿ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ ﴾

أي منه ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ هو اللوح المحفوظ والغرض أن الله سبحانه لا تخفى عليه ذرة في الكون، فكيف تخفى عليه أحوال البشر؟.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾.

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾ أي ليثيب المؤمنين الذين أحسنوا العمل في الدار الدنيا، ويجزيهم أحسن الجزاء، وهي علة لقوله تعالى: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ وبيان لما يقتضي إتيانها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات الجليلة ﴿لَهُم﴾ بسبب ذلك ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ لما فَرَط منهم، قلما يخلو عنها البشر ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لا تعب فيه، ولا منَّ عليه، ولا تنغيص ولا كدر.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالقدح فيها، وصدِّ الناس عن التصديق بها ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي مسابقين كي يفوتونا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ﴾ أي من سيِّىء العذاب ﴿أَلِيمٞ﴾ شديد الإيلام والإيجاع.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي يعلم أولو العلم من علماء الأمة المحمدية، أو ممن آمن من علماء أهل الكتاب ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي القرآن العظيم الموحى إليك يا محمد ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ أي هو الحق الذي لا يأتيه الباطل، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم، الذي هو التوحيد، والتدرع بلباس التقوى.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ هم كفار قريش، قالوا مخاطباً بعضُهم لبعض ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾؟ يعنون الرسول ﷺ، وإنما قصدوا بالتنكير: السخرية، قاتلهم الله ﴿ يُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي يحدّثكم بأعجب العجائب ﴿ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي إذا متم، ومُزِّقت أجسادكم كل تمزيق، بحيث صرتم تراباً ورُفاتاً، ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾؟ أي مستقرون فيه، يعني أنكم تبعثون خلقاً جديداً؟.

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾؟ أي أهو مفترٍ على الله كذباً، فيما ينسب إليه تعالى من ذلك؟ ﴿ أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ﴾ أي جنون يوهمه ذلك؟ قال الله تعالى رداً عليهم: ليس بالرسول ﷺ من الافتراء والجنون شيء ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ يعني منكري البعث ﴿ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ أي بل هم في اختلال العقل، وغاية الضلال، لأن من يسمي المهتدي ضالاً فهو الضال، ومن يسمي الهادي مجنوناً فهو الأجنُّ، والرسول عليه الصلاة والسلام في غاية العقل والكمال.

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ استئناف مسوقٌ لتهويل ما اجترؤا عليه، من تكذيب آيات الله، واستعظام ما قالوا في

حقه ﷺ، وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد العذاب من غير تأخير، أي فعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل، المستتبع للعقوبة، فلم ينظروا إلى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم، بحيث لا مفر عنه ولا محيص ﴿إِن نَّشَأْ﴾ على موجب جناياتهم ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفناها بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ أي قطعاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أسقطناها على أصحاب الأيكة بما ارتكبوه من الجرائم، وإنا لقادرون على عذابهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من السماء والأرض، من حيث إحاطتهما بالناظر، وما تدلان عليه من قدرة الله، وعظمته ﴿لَءَايَةً﴾ واضحة ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ شأنه الإنابة إلى ربه، فإنه إذا تأمل فيما يراه، وتأمل قدرة الله، ينزجر عن القبائح، وفيه حث لهم على الإنابة.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ﴾ أي آتيناه لحسن إنابته، وصحة توبته ﴿فَضْلًا ۖ﴾ أي نوعاً من الفضل على سائر الناس فيندرج فيه النبوة، والكتاب، والمُلْك، والصوت الحسن ﴿يَٰجِبَالُ﴾ بدل من آتينا بتقدير قلنا ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ من التأويب، أي رجِّعي معه التسبيح إذا سبَّح، فكان كلما سبَّح عليه السلام، يُسمع من الجبال ما يسمع من المسبِّح، معجزةً له ﴿وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ عطف على فضلاً، بمعنى وسخَّرنا له الطير، فعكفت من فوقه تسبِّح معه، وفي تنزيل الجبال والطير، منزلة العقلاء، مطيعين لأمره تعالى، من الفخامة المعبرة عن عظمة شأنه تعالى ما لا يخفى، وإنما ذكر الجبال والطير، لأن الصخور للجمود، والطير للنفور، يستبعد منهما الموافقة، فإذا وافقاه فغيرُها أولى، ثم إن من الناس من لن يوافقه وهم القاسية قلوبهم، التي هي أشدُّ قسوة من الحجارة ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي جعلناه ليناً في نفسه كالشمع، يصرّفه في يده كيف يشاء، من غير إحماءٍ

بنار، ولا ضرب بمطرقة، أو جعلناه بالنسبة إلى قوته التي آتيناه إياها ليناً كالشمع، بالنسبة إلى سائر القوى البشرية، وهو في قدرة الله تعالى يسير، فإن الحديد يلين بالنار، وينحل حتى يصير كالمداد الذي يكتب به فأي عاقلٍ يستبعد ذلك من قدرة الله؟ قيل: إنه عليه السلام طلب من الله تعالى، أن يغنيه عن الناس، فألان له الحديد، وعلّمه صنعة اللبوس، وهي الدروع.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أي أمرناه فقلنا أن أعمل ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي الدروع الواسعة، وهو أول من اتخذها، وكانت قبل ذلك صفائح ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ السَّرْدُ: نَسْجُ الدروع، أي اقتصد في نسجها، بحيث تتناسب حِلقها ومساميرها ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي وأكثروا من فعل الخيرات، وعموم الخطاب لعموم التكليف له ولأهله، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إني مطلع على أعمالكم مراقب لها، ومن يعمل للملك شُغلاً، ويعلم أنه بمرأى من المَلِك، يحسن العمل ويتقنه.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح، وكانت ريحاً مخصوصة، لا هذه الرياح المعهودة فإنها لمنافع عامة، ويدل عليه أنه لم يُقرأ إلا على التوحيد، فما قرأ أحد الرياح ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي جريها بالغداة مسيرة شهر، وبالعشي كذلك، وعن الحسن رحمه الله كان

يغدو من دمشق فَيَقِيلُ بإصطخر، ثم يروح بكابل ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي النحاس المذاب، وكان ذلك باليمن، أي أذبنا له عين النحاس، أذاب الله النحاس لسليمان، كما ألان الحديد لداود عليهما السلام، ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي وسخرنا له من الجن ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي بأمره تعالى وتسخيره ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يعدل منهم عما أمرناه به، من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي عذاب النار في الآخرة، وقيل: في الدنيا، فمن زاغ منهم يُحرقه الله تعالى.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ تفصيل لما ذكر من عملهم ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ بيان لما يشاء أي من قصور حصينة، ومساكن رفيعة شريفة، سُمِّيت بذلك لأنه يُحارب عليها ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ ما يكون في المحاريب من النقوش، وفيها تماثيل وصور لأنواع من المخلوقات، على عادة الملوك والعظماء، قال الحسن: لم تكن يومئذٍ محرَّمة، وقد حرمت في شريعتنا سدًّا للذريعة[1]، لئلا تُعبد من دون الله ﴿وَجِفَانٍ﴾ أي قصاع ضخمة جمع جفنة، وهي آلة الأكل ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ أي كالحياض الكبيرة جمع جابية، وهي الحوض الكبير الواسع قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل لكثرة جنده ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ ثابتات لعظمتها، ذكر في حق داود آلة الحرب، وفي حق سليمان عليهما السلام آلة السلم، وهي المساكن، والمآكل وذلك لأن داود قتل الملوك الجبابرة، وهيأ لابنه الملك، وجمع له المال فكان في زمانه العظمة بالإطعام والإنعام ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ حكاية لما قيل لهم

(١) انظر كتابنا «روائع البيان في تفسير آيات الأحكام» حول حكم التماثيل والصور ٢/ ٣٧٩ ففيه بحث نفيس مفصَّل.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي المتوفر على أداء الشكر، بقلبه ولسانه وجوارحه، ومع ذلك لا يوفي حقه، لأن التوفيق للشكر نعمة أخرى تستدعي شكراً آخر، روي أن داود عليه السلام جزَّأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من الساعات، إلاَّ وإنسان من آل داود قائم يصلي، خاشعاً متضرعاً إلى الله.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي حكمنا على سليمان عليه السلام بالموت، وأمتناه فعلاً، وإنما حكى تعالى أمر موته، بعد أن حكى عظمة سليمان، وتسخير الريح، والجن، لينبِّه أنه لم ينج من الموت، مع ما أعطي من الملك الباهر، وعلى أن الموت لا بد منه لكل حيّ ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾ أي الجن ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾ أي على موت سليمان عليه السلام ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ هي دويبة تنخر الخشب وتأكله وهي السُّوسة ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي عصاه ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ علماً بيّناً بعد التباس الأمر عليهم ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون، لعلموا موته، حيثما وقع، ولم يلبثوا بعده حولاً وهم لا يدرون موته روي أنه لمَّا حان أجله، سأل ربه أن يُعَمِّي عليهم موته، فقام يصلي متكئاً على عصاه، فقبض الله روحه، وهو متكىءٌ عليها، فبقي كذلك، والجنُّ فيما أُمروا به من الأعمال الشاقة، حتى أكلت الأرضة عصاه فخر ميتاً، وكان عمره عليه السلام ثلاثاً وخمسين سنة.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ أي لأولاد سبأ بن يشجب بن قحطان ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ وهي باليمن، يقال لها «مأرب» بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ﴿ءَايَةٌ﴾ عظيمة دالة على وجود الخالق جلَّ وعلا وقدرته، المجازي لكل محسنٍ ومسيء ﴿جَنَّتَانِ﴾ المراد بهما روضتان من البساتين ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي جماعة عن يمين بلدهم، وجماعة عن شمالها، كل واحدة كأنها جنة واحدة، أو بستان كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكاية لما قيل لهم على لسان نبيهم، تكميلاً للنعمة، وتذكيراً لحقوقها حيث لم يمنعهم من أكل ثمرها خوف ولا مرض ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ كانت أطيب البلاد هواءً، وأخصبها تربة، ليس فيها بعوض ولا ذباب، ولا ما يعكِّر الصفو ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي وربكم الذي رزقكم ما فيها، رب غفور، يغفر زلة من يشكره.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكر، بعد إبانة الآيات الداعية لهم إليه، قيل: أرسل الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله تعالى، وأنذروهم فكذبوهم، وقالوا ما نعرف لله علينا نِعمة، فقولوا لربكم فليحبسْ هذه النعمة عنا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي السيل، المدمِّر المخرّب، الذي لا يطاق لشدته وكثرته، فغرَّق بساتينهم ودورهم، وذلك بثقب السد الذي كان يحبس عنهم السيول الذي بنته الملكة «بلقيس» بين الجبلين بالصخر والقار، فلما هدم السدُّ جاء السيل وعلا على دورهم وأموالهم فغرَّقها ومُزِّقوا كل ممزَّق، حتى صاروا مثلاً عند العرب، يقولون: ذهبوا أيدي سبأ ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ أي أذهبنا جنيتهم وآتيناهم بدلهما ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ الأُكُل: الثمرُ، والخَمْطُ: المرُّ البشع أي ثمر بشع، فإن الخِمْط كل نبت أخذ طعماً من مرارة، لا يمكن أكله ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

الأثلُ: شجر لا ثمر له، ووصف السدر بالقلة لما أن جناه لا يؤكل أصلاً وهو عارٍ عن النفع، أي وشيء من الأشجار التي لا ينتفع بثمرها، كشجر الأثل والسِّدر، وحاصله كانت أشجارهم خير الأشجار، فصيرها الله تعالى من شر الأشجار، بسبب أعمالهم الخبيثة، وتسمية البدل بجنتين للتهكم، بيَّن الله به دوام الخراب، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس، تكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة، وإذا تُركت سنين تصير كالغيضة والأجمة، وتنبت فيها المفسدات، ولا خير فيها.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر من التبديل ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ أي بذلك الجزاء الفظيع ﴿بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ﴾ بسبب كفرانهم النعمة، حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانها ضدها ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي ما نجازي هذا الجزاء، إلا للمبالغ في الكفر، الجاحد لفضل الله.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ حكاية لما أوتوا من النعم البادية، في أسفارهم ومتاجرهم، تكملة لقصتهم، وإنما لم يُذكر الكلّ معاً، لما في التكرير من زيادة تنبيه وتذكير، وهو عطف على ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ لا على ما بعده، أي جعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم، من فنون النعم ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي القرى الشامية ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي متواصلة يُرى بعضُها من بعض، لتقاربها، ظاهرة للمسافرين، فكانوا في متعة في أسفارهم، كما كانوا في رغد من عيشهم، وهي أربعة آلاف قرية من سبأ إلى الشام ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ﴾ أي جعلناها في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين، يليق بأبناء السبيل، فقد كان الغادي يقيل في بلدة، والرائح منها

يبيت في الأخرى، إلى أن يبلغ الشام ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾ أي وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ متى شئتم من ليل ونهار ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا تخافون عدواً، ولا جوعاً، ولا عطشاً، وإن تطاولت مدة سفركم، ولا تحتاجون إلى حمل زاد ولا ماء، لكثرة الخيرات والمياه، فكانوا يسيرون آمنين مطمئنّين لا يخافون شيئاً.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي بطروا النعمة، وسئموا طيب العيش، فطلبوا الكدَّ والتعب، كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل، مكان المنِّ والسلوىٰ، وسألوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً، ليركبوا فيها الرَّاوحل، ويتطاولوا على الفقراء، فعجل الله لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة، وجعلها بلقعاً لا يُسمع فيها داع ولا مجيب ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث عرَّضوها للسخط والعذاب ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم، متعجبين من أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ﴿وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي فرقناهم كلَّ تفريق، وشرَّدناهم في البلاد، قيل: لما غرقت بلادهم، تفرقوا في البلاد، حتى لحقت «غسان» بالشام، و «أنمار» بيثرب، و «حزام» بتهامة، و «الأزد» بعمان، وفي عبارة التمزيق من تهويل الأمر، وشدة الإيلام والتأثر ما لا يخفى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكر من قصتهم ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ أي عظيمة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي شأنُه الصبرُ على البلاء، والشكر على النعماء.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي حقَّق على أهل سبأ ظنه أنه يغويهم، كما قال اللعين: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ وقوله تعالى ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾

بيان لذلك، أي فاتبعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة، . وكفروا نعمة الله ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إلاَّ فريقاً هم المؤمنون، فإنهم لم يتبعوه، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[1].

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم﴾ أي لإبليس على الذين صار ظنه فيهم صدقاً ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ من تسليط واستيلاء بالوسوسة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي إلا لحكمة جليلة، هي أن نظهر علمنا للعباد، ليعلموا المؤمن من الكافر، والخبيث من الطيب، وليميزوا بينهما، والمراد بقوله: ﴿إلاَّ لنعلم﴾ أي لنظهر للخلق علمنا، وإلاَّ فالله عزَّ وجلَّ عالم بما كان وما سيكون ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي يؤمن بالآخرة، ممن هو شاك فيها، والمراد من حصول العلم، حصول متعلقه مبالغة ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ أي محافظ عليه، رقيب على العباد، لا تخفى عليه خافية من أفعالهم، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾[2] واعلم أنَّ عِلمه تعالى من الأزل إلى الأبد، محيط بكل معلوم، وعلمه لا يتغير، ولكنْ هو كاشف يكشف ما خفي على البشر، ولذلك يُقال: هو علم إظهار لا علم بداء أي بداية، فالله يبتلي العباد ليظهر لهم الحقائق، مثاله: إن المرآة يظهر فيها صورة زيد، ثم إذا قابلها عمرو تظهر صورته، والمرآة لا تتغير في ذاتها، ولا تتبدل في صفاتها، وإنما التغير في الخارجات، فكذلك ههنا وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ إشارة إلى أنه ليس بملجىء، وإنما هو علامة خلقها الله، ليتبين للعباد ما هو في علمه تعالى.

---

(١) سورة الحِجر، آية: ٤٢.

(٢) سورة العنكبوت، آية: ٣.

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ قُلِ ﴾ لما بيّن الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين، عاد إلى خطاب أهل مكة، أي قل للمشركين إظهاراً لبطلان ما هم عليه ﴿ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ أي زعمتموهم آلهة ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع، أو دفع ضر لعلهم يستجيبون لكم، إن صحَّ دعواكم؟ ثم أجاب عنهم إشعاراً بتعين الجواب فقال ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ من خير أو شر ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي في أمر من الأمور، في السموات ولا في الأرض، وليسوا بقادرين على شيء في الكون بأجمعه ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ أي لآلهتهم ﴿ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أي من شركة، لا خلقاً، ولا مِلْكاً، ولا تصرفاً ﴿ وَمَا لَهُۥ ﴾ أي لله تعالى ﴿ مِنْهُم ﴾ من آلهتهم ﴿ مِّن ظَهِيرٍ ﴾ يعينه في تدبير أمرهما، يريد أنهم في هذه الصفات من العجز، فكيف يصحُّ أن يُدْعَوْا كما يُدعى، ويُرْجَوْا كما يُرجى؟.

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ قاله تكذيباً للكفار، حيث قالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قلوب الشفعاء، من الملائكة، والرسل، والتفزيعُ: إزالةُ الفَزَع، كأنه قيل: يتربصون في موقف الاستئذان، ويتوقفون على وَجَلٍ وفزع، حتى أزيل الفَزَعُ عن قلوبهم وظهرت لهم تباشير الإجابة ﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾؟ في شأن الإذن ﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي الشفعاء ﴿ ٱلْحَقَّ ﴾ أي قال ربنا القولَ الحق، وهو الإذن للمستحقين لها ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي وهو المنفرد بالعلوّ والكبرياء جلَّ وعلا.

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ قُلْ ﴾ أمر ﷺ بتبكيت المشركين، بحملهم على الإقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما، وأن الرزاق هو الله تعالى، وحيث كانوا يتلعثمون أحياناً مخافة الإلزام، قيل له ﴿ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ﴾؟ إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً، فهم مقرُّون به بقلوبهم. كما أنهم عند الضُرّ يقولون ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وإذا مسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوْا ربَّهُمْ﴾ وأمَّا عند الراحة فهم غافلون عن الله، فلذلك قال لرسوله ﴿قُلِ اللهُ﴾ ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى المناظرات العلمية، وذلك لأن أحد المتناظرين، إذا قال للآخر: هذا الذي تقول خطأ، أو أنت مخطىءٌ يغضبه، وعند الغضب يكون عنادُ الفكرِ، وأما إذا قال له: أحدنا لا يُشكُّ أنه مخطىء، والتمادي في الباطل قبيح، والرجوع إلى الحق أحسن، فإنه لا يغضب، ويجتهد في النظر ويترك التعصب، وهذا أبلغ من التصريح، لأنه في صورة الإنصاف، المسكت للخصم الألد، وقد ذكر تعالى في الهدى كلمة (على) وفي الضلال كلمة (في) لأن المهتدي كمن ركب جواداً يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في الظلام لا يرى شيئاً [1].

---

(١) هذا نهاية الإنصاف مع الخصم، فمن المعلوم أنَّ من عبد الله وحده كان مهتدياً، ومن عبد غيره من جماد كان ضالاً، ففي قوله: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ غاية التلطف في الدعوى، والإنصاف مع المعاند، وفيه تعريض بضلالهم، وهو أبلغ من الردّ بالتصريح، وكذلك في الآية بعدها ﴿قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ ملاطفة وتنزل في المجادلة إلى غاية الإنصاف، حيث أسند الإجرام لنفسه، والعمل إلى المشركين المجادلين، ولله در التنزيل!!.

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ هذا أدخل في الإنصاف، وأبلغ في الإخبات، حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم، والعمل إلى المخاطبين، مع أن أعمالهم أكبر الكبائر. فذكره بلفظ العمل، لئلا يحصل الإغضاب، وقوله: ﴿لا تُسْأَلُونُ وَلاَ نُسْأَلُ﴾ زيادة حثٍّ على النظر.

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ يوم القيامة، عند الحشر والحساب ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ ثم يحكم بيننا بالعدل، بأن يُدخل المحقين الجنة، والمبطلين النار ﴿ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ﴾ أي الحاكم الفيصل في القضاء، الذي لا يظلم أحداً، والفتح حقيقة في فتح المغلق، ومجاز في فتح الحُكْم المغلق ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما ينبغي أن يقضي به.

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ﴾ أي أعلموني ﴿ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم ﴾ أي ألحقتموهم ﴿ بِهِۦ ﴾ بالله تعالى ﴿ شُرَكَآءَ ﴾ أريد بأمرهم ذلك إظهار خطئهم العظيم، أي أرونيها لأنظر بأيِّ صفةٍ ألحقتموها شركاء بالله، الذي ليس كمثله شيء، في استحقاق العبادة؟ وفيه مزيد تبكيت لهم، بعد إلزام الحجة عليهم ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لهم عن المشاركة ﴿ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الموصوف بالغلبة القاهرة، والحكمة الباهرة، فأين شركاؤكم التي هي أخسُّ الأشياء من هذه الرتبة العالية!؟.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ لمَّا بيَّن مسألة التوحيد، شرع في بيان الرسالة، أي وما أرسلناك يا محمد إلا لعموم البشر ﴿ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ذلك، فيحملهم جهلهم على ما هم عليه من الغي والضلال.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ من فرط جهلهم ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ ﴾؟ بطريق الاستهزاء، يعنون به العذاب الموعود، الذي كان يخوفهم به سيد الخلق ﷺ ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ مخاطبين لرسول ﷺ والمؤمنين.

﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ ﴾ أي وعدُ يوم ﴿ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ ﴾ عند مفاجأته ﴿ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ وفي هذا الجواب مبالغة في التهديد.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ ﴾ من الكتب القديمة الدالة على البعث، قيل: إن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله ﷺ، فأخبروهم أنهم يجدون نعته في كتبهم، فغضبوا فقالوا

ذلك ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي المنكرون للبعث ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في موقف المحاسبة، ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي يتخاصمون ويتحاورون، كما يكون عليه حال جماعة، أخطأوا في أمر، يقول بعضهم لبعض: «كان ذلك بسببك». ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أي يقول الأتباع، بدأ بهم لأن الضال أولى بالتوبيخ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ في الدنيا واستبقوهم في الغي والضلال ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ أي لولا إضلالكم وصدكم لنا عن الإيمان ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتباع الرسول ﷺ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ أي قال الرؤساء جواباً للمستضعفين من الأتباع: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾؟ منكرين لكونهم هم الصادون عن الإيمان ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أي راسخين في الإجرام لاختياركم، وإيثاركم الضلال على الهدى، ولم تضلوا بسببنا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي لم يكن إجرامنا هو الصادّ لنا عن الإيمان، بل صدَّنا مكركُم الدائم بالليل والنهار ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾ أي وقت أمركم لنا ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾ أي حين دعوتكم لنا إلى الكفر بالله، وأن نجعل له شركاء، وزينتم لنا ذلك، ولولا تزيينكم لنا الباطل ما كفرنا ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي أضمر

الفريقان النَّدامة، على ما فعلا من الضلال والإضلال، وأخفاها كل منهما عن الآخر، مخافة التعيير ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي وجعلنا السلاسل الحديدية في أعناق الكفرة الفجار، زيادة على تعذيبهم بالنَّار، فتركوا الندم والمحاورة، ودفعوا في نار الجحيم. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؟ أي لا يجزون إلا بما كانوا يعملونه من القبائح وسوء الأعمال.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي متنعّموها ورؤساؤها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ هذا تسلية لرسول الله ﷺ، ممَّا مُنِيَ به من قومه، وتخصيص المتنعمين، مع أن غيرهم أيضاً قالوا ذلك، لأن الأغنياء المستكبرين، هم الأصل في ذلك، ولأن الداعي إليه التكبرُ والمفاخرةُ، ألا ترى أن المستضعفين قالوا للمستكبرين: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾؟.

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي وقال الطغاة المترفون من أغنياء مكة: نحن أكثر أموالاً وأولاداً من هؤلاء الضعفاء المؤمنين، ولن يعذبنا الله، لأنه أكرمنا في الدنيا، فلا يهيننا في الآخرة على تقدير وقوعها، وقاسوا أمور الآخرة على أمور الدنيا.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي ويضيّق على من يشاء أن يضيقه عليه، من غير أن يكون لأحد دخل، فربما يوسع على العاصي، ويضيّق على المطيع، وربما يعكس

الأمر، وقد يوسّع على شخص تارة، ويضيّق عليه أخرى، حسبما تقتضيه مشيئته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيزعمون أن مدار التوسعة هو الشرف والكرامة، ومدار التضييق هو الهوان، وكثيراً ما يكون استدارجاً للكافر، كما قال سبحانه ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي وليست أموالكم ولا أولادكم تقرّبكم عندنا قربة، وهو رد على قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ فإن المال والولد لا يقرّبان إلى الله تعالى، ولا اعتبار بالتعزز به ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي لا تقرّب أحداً، إلاّ المؤمن الصالح، الذي أنفق أمواله في سبيل الله، وعلّم أولاده الخير، وربّاهم على الصلاح، ورشحهم للطاعة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالإيمان والصلاح ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ يعني تُضاعفُ حسناتُهم، الواحدة عشراً فما فوقها ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من الصالحات ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي في غرفات الجنة ﴿ءَامِنُونَ﴾ من جميع المكاره، وفيه إشارة إلى دوام النعيم، فإن من تنقطع عنه النّعمة لا يكون آمنا.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي وأما الكفار الذين يسعون للصدّ عن سبيل الله، يظنون أنهم يعجزوننا ويفوتوننا، فهم في العذاب مخلّدون، لا يجديهم ما عوّلوا عليه نفعاً.

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ أي يوسِّع على من يشاء، ويضيِّق على من يشاء ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ أي وما أنفقتم في سبيل الله، قليلاً كان أو كثيراً، فإن الله سبحانه يعوِّضه عليكم، إما عاجلاً أو آجلاً، أمّا في الدنيا فبالمال، من حيث لا يحتسب الإنسان، أو بالقناعة وهي كنز لا يفنى، وأما في الآخرة فبالثواب الذي كل خلف دونه، وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تبارك وتعالى: «أَنْفِقْ يُنْفَقْ عليك»[1] وقال ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا ومَلَكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهم أعطِ مُنفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ أعطِ ممسكاً تَلَفاً»[2] ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ أي هو تعالى خير المعطين لعباده، فإن غيره وسط في إيصال رزقه، لا حقيقة لرازقيته، فإن العبد إذا أعطى غيره شيئاً، فإن الله هو المعطي، ولكن لأجل صورة العطاء منه سُمي المعطي، كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط: فرسٌ، وإنسان.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي المستكبرين، والمستضعفين، وما عبد من دون الله ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ تقريعاً للمشركين على

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٨/ ٢٦٥ ومسلم في الزكاة رقم ٩٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ٣/ ٢٤١ ومسلم رقم ١٠١٠ في الزكاة أيضاً باب في المنفق والممسك.

نهج قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾ وإقناطاً لهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة، من شفاعتهم.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ۖ﴾ أي أنت الذي نواليه من دونهم، لا موالاة بيننا وبينهم، كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم، ثم أضربوا عن ذلك، ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ﴾ أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله تعالى ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ الضمير الأول للمشركين، والثاني للجن، أي أكثر هؤلاء الكفار، مصدّقون بأقوال الشياطين، يزعمون أن الملائكة تشفع لمن عبدها، وما هو إلاّ ظنٌّ وتخمين.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي ففي يوم القيامة يوم الحساب والجزاء ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لأن الأمر في ذلك اليوم لله وحده، إذ الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو الله وحده ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي ونقول للمشركين ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدّنيا، فحينئذ يكون من الأهوال ما لا يحيط به نطاق المقال.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ۚ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي وإذا تتلى عليهم بلسان الرسول ﷺ آياتنا الناطقة بحقيَّة التوحيد، وبطلان الشرك ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون الرسول ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أي ليس إلا بشراً مثلكم يريد أن يمنعكم عمَّا كان عليه آباؤكم فيستتبعكم بما يستدعيه، من غير أن يكون هناك دينٌ إلهي، وإضافة الآباء إلى المخاطبين لتحريك عرق العصبية منهم، مبالغة في تثبيتهم على الشرك ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون القرآن الكريم ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ أي كلام مصروف عن وجهه، لا مصداق له في الواقع ﴿مُّفْتَرًى﴾ أي مكذوب بإسناده إلى الله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ أي قال الكفرة المتمردون بجرائمهم على الله قالوا عن القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ من غير تدبر، ولا تأمل فيه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا القرآن إلا سحر واضح ظاهر، لا يخفى على لبيب!! وكلامهم هذا عجيب، فلم يقولوه عن بصيرة، وإنما عن ظن وتخمين، ولهذا ردَّ الله عليهم بقوله:

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ﴾ أي يقرؤون فيها ما يقولون ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي وما بعثنا قبلك يا محمد رسولاً ينذرهم عذاب الله، ويعرِّفهم الحقيقة بوجهٍ من الوجوه، فمن أين ذهبوا هذا المذهب الضال؟ وكيف حكموا هذا الحكم الظالم؟ وهذا غاية التجهيل لهم.

ثم هدَّدهم بقوله تعالى:

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المتقدمة كما كذبك هؤلاء الضالون ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة، وطول العمر، وكثرة المال والأولاد ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ

نَكِيرِ﴾؟ أي إنكاري عليهم بالهلاك والتدمير؟ ولم يغنِ عنهم ما كانوا عليه من القوة والبأس، فليحذر هؤلاء من مثل ذلك.

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي ما أرشدكم إلا بخصلة واحدة؛ هي ما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ ليس المراد به القيام على القدمين، بل النهوض بالهمَّة أي أن تنصبوا للأمر وتهتموا به، خالصاً لوجه الله، وطلباً للحق، معرِضين عن المماراة والتقليد، والحمية والعصبية ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي متفرقين، اثنين اثنين، وواحداً واحداً، فإن الجمع الكبير يشوّش الأفهام، ويخلط الأفكار بالأوهام، وفي تقديم ﴿مَثْنَىٰ﴾ إيذان بأنه أوثقُ، وأقرب إلى الاطمئنان، لأنهما يتفكران، ويعرض كل واحدٍ منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه، نظر الصدق والإنصاف، حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق، والفردُ يتفكر في نفسه، بعدلٍ وإنصاف، ويعرض فكره على عقله، فعقله يؤديه إلى الحق، ثم ليفكر في نفسه، هل رأى في هذا الرجل أثر الجنون؟ أو جرَّب عليه كذباً قط؟ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ في أمره ﷺ وما جاء به، لتعلموا حقيقته وحقّيته، وأنَّ مثل هذا الأمر العظيم، الذي تحته ملك الدنيا والآخرة، لا يتصدى لإعادته إلا مؤيَّد من عند الله، مرشح للنبوة، واثق بحجته، وإذ قد علمتم أنه ﷺ أرجح العالمين عقلاً، وأصدقهم قولاً، وأنزههم نفساً، وأفضلهم علماً، وأحسنهم عملاً، وأجمعهم للكمالات البشرية، وقد انضم إلى ذلك معجزات، تخرُّ لها صمُّ الجبال، وإذ علمتم ذلك تبين أنه ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي ما بمحمد الذي صاحبتموه، شيء من آثار الجنون، كما افتريتم عليه!! ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ أي ينذركم ويخوفكم بعذاب أليم ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وهو عذاب الآخرة.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي أيَّ شيءٍ سألتكم من أجر على الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي السؤال رأساً، كقول من لم تعطه شيئاً: إن أعطيتني شيئاً فخذه ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هو سبحانه مطَّلع على حقيقة الأمر، يعلم صدقي، وخلوص نيتي، وبأني لا أطلب، الأجر إلاَّ منه، وكفى به شهيداً!!.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي الوحي يلقيه وينزله على من يجتبيه من عباده، ويرمي به الباطل فيدمغه، كقوله سبحانه: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فَيَدْمَغُهُ فإذا هو زاهق..﴾[1] ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ أي هو سبحانه العالم بخفيَّات الأمور.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي الإسلام والتوحيد ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ أي زَهَق الشركُ، بحيث لم يبق أثره، ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي ظهر، لأن كل ما جاء فقد ظهر، والباطلُ خلاف الحق، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي لا يفيد شيئاً في الأولى، ولا في الآخرة، فلا إمكان بوجوده أصلاً.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٨.

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴾ عن طريق الحقّ كما زعمتم ﴿ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ ﴾ فإن وبال ضلالي عليها، لأنه بسببها، لا يضرّ غيرها، وذلك لأن كفار مكة، كانوا يقولون له: إنك قد ضللتَ حين تركتَ دين آبائك!! ﴿ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ ﴾ لأن الاهتداء بهدايته وتوفيقه، وفيه تقرير الرسالة، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فلنفسه﴾ وقال في حق الرسول ﷺ ﴿وإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ يعني ضلالي على نفسي كضلالكم، وأما اهتدائي فليس كاهتدائكم، وإنما هو بالوحي المبين، وإذْ أوحى الله إليَّ هذا القرآن، فأنا على الهداية التامة بفضل الله ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ ﴾ يسمع قول كل من المهتدي والضال ﴿ قَرِيبٌ ﴾ مني ومنكم، يجازيني ويجازيكم.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ ﴾ عند البعث، وجواب «لو» محذوفٌ للتهويل، أي لرأيتَ أمراً هائلاً فظيعاً ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ أي لا مهرب ولا مخلص ﴿ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أي من الموقف إلى النار.

﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ حين عاينوا العذاب ﴿ بِهِۦ ﴾ بالرسول ﷺ وبالقرآن، وقد مرَّ ذكره ﷺ في قوله تعالى: ﴿ما بصاحبكم﴾ ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ ﴾ التناوشُ: التناولُ السهل، أي ومن أين لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً؟ ﴿ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد، فكيف يعودون إليها ليؤمنوا؟ وهو تمثيل حالهم، في الاستخلاص بالإيمان، بعدما فات عنهم، بحال من يريد أن يتناول الشيء من بعيد، ويده لا تصل

إليه، وقد بعدت الدنيا عن الآخرة، بمفاوز، فكيف يصلون إلى الإيمان، وهم في عرصات الآخرة؟ والتوبة كانت تقبل في الدنيا وقد ذهبت؟.

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ أي بالرسول ﷺ وبالحقِّ الذي جاء به الرسول ﷺ ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل ذلك، في أوان التكليف في الدنيا ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي ويرمون بالظنِّ في الأمور الغيبية، ويتكلمون بما لم يظهر لهم، في الرسول ﷺ ودعوته، من المطاعن حيث يقولون: لا بعث، ولا حساب، ولا جنة، ولا نار ﴿ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أي من جهة بعيدة لا يرون ما يرمونه، وهو تمثيلٌ لحالهم في ذلك، بحال من يرمي شيئاً لا يراه، من مكان بعيد، فكيف يصيبه؟ والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف: هو يقذف ويرجم بالغيب، على جهة التمثيل، لمن يرمي ولا يصيب الهدف.

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أي وحيل بين الكفار وبين ما يشتهون، من نفع الإيمان، والفوز بالجنان، والعودة إلى الدنيا ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أي كما فُعل بأشباههم وأمثالهم، من كفرة الأمم الدارجة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أي لأنهم كانوا في الدنيا في شك وارتياب، من أمر البعث والحساب، موقع لهم في الريبة والتهمة، وقوله: ﴿مريب﴾ من باب التأكيد، أي كانوا في شك واضح جلي، كما تقول: هذا شعر شاعر، وحكمة حكيم. والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة سبأ»

* * *

سُورَةُ فَاطِرٍ

مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي مبدعهما، من الفَطْر بمعنى الشقِّ، كأنه شقَّ العدم بإخراجهما منه ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ أي جاعلهم وسائط بينه تعالى، وبين أنبيائه، يبلّغون إليهم رسالاته، بالوحي، والإلهام، والرؤيا الصادقة ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أي ذوي أجنحة يطيرون ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ أي ذوي أجنحة متعددة، متفاوتة في العدد ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ أي يزيد سبحانه في خلق كلِّ ما يشاء أن يزيده، بموجب مشيئته تعالى، والآية تتناول كل زيادة في الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وحسن الوجه، والصوت، وحصانة العقل، وجزالة الرأي، وذلاقة اللسان، وما أشبه ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل للحكم المذكور، أي إنه تعالى قادر على كل شيء، له الخلق، والأمر، والسلطان، فلذلك لا يعجزه شيء أراده، من خلق الملائكة بهذه الصور العجيبة، والأجنحة العديدة.

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ أيْ أيَّ شيء يمنحه الله تعالى، من خزائن رحمته من نعمة، أو صحةٍ، أو أمنٍ، أو علمٍ، أو نبوة إلى غير ذلك ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ أي لا يقدر أحد على منعها وإمساكها عن عباده ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ أي أيَّ شيء يمسكه الله ويحبسه عن عباده ﴿ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ ﴾ أي لا أحد يقدر على إرساله ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي من بعد إمساكه له جلَّ وعلا ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الغالب على كل ما يشاء ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة، والمصلحة، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطي لما منعت، ولا رادَّ لما قضيتَ ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجدُّ»[1] الجَدُّ: الغِنى، الحديث.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ أي إنعامه عليكم، أي راعوها واحفظوها، بمعرفة حقها، والاعتراف بها وشكر المنعم عليها، ولما كانت نعم الله تعالى ـ مع تشعب فنونها ـ منحصرة في نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء، نفى أن يكون في الوجود شيء غيره تعالى، يصدر عنه إحدى النعمتين، بطريق الاستفهام الإنكاري فقال: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾؟ أي هل خالق مغاير له تعالى موجود ﴿ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أي بالمطر والنبات ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله جلَّ وعلا، فاعبدوه واشكروا له

(١) الحديث أخرجه مسلم في الصلاة رقم ٤٧٨ والنسائي في الافتتاح ٢/١٩٨.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون بعد هذا البيان، عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان ومن أين تكذبون فتزعمون أنَّ الآلهة ترزقكم؟.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ﴾ أي وإن استمروا على أن يكذبوك، بعدما أقمت عليهم الحجة، فتأسَّ بأولئك الرسل، في المصابرة على ما أصابهم من قومهم، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وتنكير الرسل للتفخيم، أي رسل أولو شأن خطير، وذوو عدد كثير ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كلاًّ بما يستحقه، وهذا مبالغة في الوعد والوعيد، والترغيب والتهديد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ تكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير، أي لا تخدعكم الدنيا بزخارفها ونعيمها، ولا يخدعكم الشيطان بوساوسه وأمانيه، فإنه كذَّاب خدَّاع ماكر.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي عداوته قديمة لا تكاد تزول ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾ بمخالفتكم له، وكونكم على حذر منه، فالطريق في عداوته الثبات على الجادة، والاتكال على العبادة ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تقرير لعداوته، وتحذير من طاعته، بالتنبيه على أن غرضه في دعوة شيعته إلى

اتباع الهوى، ليس لتحصيل منافعهم الدنيوية، كما هو مقصد المتحابين في الدنيا، بل هو توريطهم وإلقاؤهم في العذاب المخلد.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي الذين أطاعوا الشيطان، وصاروا من حزبه ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لا يُقادر قدره ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ لا غاية له، لكبر جهادهم، وهو الجنة دار السعادة والخلود.

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۚ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۚ ﴾ تقرير لما سبق أي أبعد كون حالهما كما ذُكر، يكون من زُيِّن له الكفر، من جهة الشيطان، كمن استقبحه واختار الإيمان، والعمل الصالح ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ ﴾ بيان أن الكل بمشيئته تعالى فإنه يضل ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ أن يضله، لصرف اختياره إليه، فيرده أسفل سافلين ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أن يهديه، بصرف اختياره إليه، فيرفعه إلى أعلى عليّين ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ ﴾ أي فلا تهلك نفسك عليهم، حسرةً على عدم إيمانهم، وإصرارهم على التكذيب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ أي هو سبحانه العالم بما يصنع هؤلاء من القبائح والجرائم، ومجازيهم عليها فلا تتأثر على عدم إيمانهم.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار، وذلك لأن الهواء قد يسكن وقد يتحرك، وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى اليسار، وقد ينشىء السحاب وقد لا ينشىء، وقد يكون نافعاً، وقد يكون ضاراً، فهذه الاختلافات دليل على مدبر ومقدر جليل ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي فتهيج وتحرّك السحاب ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ أي فنسوقه ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالمطر النازل منه ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يبسها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي مثل إحياء الموات إحياء الأموات، رُوي عن أبي رُزين العُقيلي قال: قلت يا رسول الله: كيف يحيي الله الموتى؟ فقال: «هل مررت بوادي أهلك مُمحلاً، ثم مررتَ به يهتزُّ خِضَراً؟ قلت: نعم، قال كذلك يحيي اللهُ الموتى»[1].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أي الشرف وعزة الدنيا والآخرة، ويريد أن يعلم أن العزة والقدرة والمنعة، لمن هي؟ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي فلله وحده لا لغيره، فالكفار يتعزَّزون بعبادة الأصنام، لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾[2] وكانوا يطلبون العزة عند الأصنام فقيل لهم: إن تطلبوا العزة في الحقيقة فهي كلها لله، وأما هذه الأصنام فلا عزة بها، بل عليها ذلة، فمن كان معبوده وربه حجارة أو خشباً، ماذا يكون هو؟ إنه ذليل، لأن ذلة السيد ذلة للعبد ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ بيان لما يطلب به العزة، وهو التوحيد والعمل الصالح، أي من

(١) الحديث أخرجه أبو داود، وابن ماجه، وأحمد في المسند ٤/ ١٢.
(٢) سورة مريم، آية: ٨١.

أراد العزة، فليعمل عملاً صالحاً، فإنه هو الذي يرفع العبد ويشرفه ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ السيئات صفة لمصدر محذوف، أي يمكرون المكرات السيئات، ويحتالون بالمكر والخديعة لإطفاء نور الله، والكيد للإسلام والمسلمين، كما فعلوا في دار الندوة، حيث تآمروا على الرسول ﷺ بالحبس، أو القتل، أو الإخراج، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[1] الآية ﴿لَهُمْ﴾ بسبب مكراتهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقادر قدره ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم، للإيذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد واشتهارهم بذلك، أي ومكر أولئك المفسدين ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ أي يبطل ولا ينفذ صاحبه ولقد أبادهم الله تعالى ببدر، فجمع عليهم مكراتهم، وحقَّق فيهم قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّىءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[2].

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً، ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ إلا مثبتة بعلمه، تابعة لمشيئته ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أي وما يمد في عمر أحد ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي لا يجعل من الابتداء ناقصاً، وقيل الزيادة والنقصان في عمر إنسان واحد، مثل أن يكتب إن حج فلان فعمره ستون، وإلاَّ فأربعون، وعن قتادة: المعمَّر من يبلغ ستين سنة، والمنقوص من يموت قبل الستين ﴿إِلَّا فِى

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٠.
(٢) سورة فاطر، آية: ٤٣.

﴿كِتَٰبٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، وقيل: صحيفة كل إنسان ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ من الخلق وما بعده ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه عن الأسباب.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ﴾ مَثَلٌ ضُرب للمؤمن والكافر، أي كما لا يتساوى ماء البحر وماء النهر، فهذا ماء حلو شديد الحلاوة، وذاك ماء مالح شديد الملوحة، كذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البرُّ مع الفاجر، والفراتُ: الذي يكسر العطش، والسائغ الذي يسهل انحداره، والأُجَاجُ: الذي يُحرق بملوحته ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي ومن كل واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ﴾ والمراد بالحلية: اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ أي في كل منهما ﴿مَوَاخِرَ﴾ جمع ماخرة، أي شواقَّ للماء بجريها، يقال: مَخَرت السفينةُ الماءَ أي شقته ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من فضل الله بالسفر والتجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لتشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله، بتسخير ذلك لكم.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ هو يوم القيامة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة، أي ذلكم العظيمُ الشأن، الذي أبدع هذه الصنائع

البديعة الله ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي خالقكم وموجدكم ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ أي له المُلْكُ، والسلطانُ، والتصرف الكامل في الخلق ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنام التي تعبدونها ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي لا يملكون شيئاً ولو بمقدار القطمير، وهي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة، فإذا كان له الملك كلُّه، فلا معبود إلا هو لذاته جلَّ وعلا.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ أي إن دعوتم هذه الأصنام، لم يسمعوا دعاءكم، ولم يستجيبوا لندائكم، لعجزها عن ذلك، لأنها جمادات ليس من شأنها السماع ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ بالفرض والتقدير ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ﴾ لعجزهم عن السمع والقدرة لأنها جمادات ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ أي يجحدون بإشراككم وعبادتكم إياهم بقولهم: ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي ولا ينبئك أيها المخاطب إلا اللهُ الخبير، والمعنى: إن هذا الذي أخبرتكم به، من حال الأوثان، هو الحق، لأني خبير بما أخبرت به.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ أي أنتم الفقراء على الحقيقة في أنفسكم، المحتاجون إلى الله على الدوام، في جميع أحوالكم، وفي حركاتكم وسكناتكم، وتعريف الفقراء للمبالغة، كأنهم لكثرة افتقارهم، هم الفقراء فحسب ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ المستغني على الإطلاق، المنعم على سائر الموجودات، حتى استحق عليهم الحمد.

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بيان لغناه، وفيه بلاغة كاملة، وبيانها أنه تعالى قال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيئته، سبحانه بخلاف الشيء المحتاج إليه، فإن المحتاج لا يقال فيه: إن يشأ فلانٌ هدم داره، ثم زاد بيان الاستغناء بقوله: ﴿ويأتِ بِخَلقٍ جَدِيدٍ﴾ أي ويأتي بقوم آخرين خير منكم، ليسوا على صفتكم، بل مستمرون على العبادة.

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ ﴾ أي ما ذكر من الإذهاب والإتيان ﴿ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي ليس بصعب، ولا متعسر، لأنه على كل شيء قدير.

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴾ أي لا تحمل نفس آثمة ﴿ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أي إثم نفسٍ أخرى، كما يأخذ جبابرةُ الدنيا الوليَّ بالولي، والجارَ بالجار، بل إنما تحمل كل منهما وزرَها، ألا ترى كيف كذَّب الله المشركين في قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[1] وأما في قوله تعالى: ﴿وليَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وأثْقَالاً مَعَ

(١) سورة العنكبوت، آية: ١٢.

أَثْقَالِهِمْ﴾[1] فهو حمل أثقال إضلالهم، مع أثقال ضلالهم، وكلاهما أوزارهم، ليس فيها أوزار غيرهم ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي نفس أثقلتها الأوزار ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ أي لحمل بعض أوزارها ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ أي لم تُجب بحمل شيء منه ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعوُّ المستغاثُ به ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ ذا قرابة من الداعي، كأخ، أو ابن، أو عم، فكل إنسان يريد نجاة نفسه، حتى إن الأمَّ لتتعلق بالابن فتقول: يا بنيَّ احملْ عني بعضَ أوزاري، فيقول: لا أستطيع، نفسي، نفسي ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي إنما تنذر بهذا القرآن والذكر ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي يخشون عذابه وهو غائب عنهم، أو عن الناس في خلواتهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي راعوها كما ينبغي، أي إنما ينتفع من إنذارك هؤلاء من قومك، دون من عداهم من أهل التمرد والطغيان ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي تطهَّر من أوضار الأوزار والمعاصي، بالتأثر من هذه الإنذارات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ لاقتصار نفعها عليها، كما أن من تدنَّس بها، لا يتدنس إلا عليها ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ لا إلى أحد غيره، فيجازيهم على أعمالهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي الكافر والمؤمن، والجاهل والعالم.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ أي ولا الباطل ولا الحق، وجمعُ «الظلمات» مع إفراد النور، لتعدد فنون الباطل، واتحاد الحق.

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ١٣.

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ أي ولا الثواب ولا العقاب، أو الجنة والنار وإدخال لا على المتقابلين لتأكيد نفي الاستواء، والحَرُورُ من الحرِّ، غلب على السموم، وقيل: السموم ما يهبُّ نهاراً، والحَرُور ما يهبُّ ليلاً.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين، أبلغ من الأول، فإن الأعمى قد يكون فيه بعض النفع، بخلاف الميت، فإنه لا نفع فيه مطلقاً، فشبه تعالى المؤمنين بالأحياء، والكافرين بالأموات، لأنهم مثل الأموات لا يسمعون ولا يستجيبون [1]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾ أن يسمعه، ويوفقه لفهم آياته، والاتعاظ بعظاته ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ ترشيح لتمثيل المصرّين على الكفر بالأموات، وإقناطه ﷺ من إيمانهم.

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي ما عليك إلا الإنذار، وأما الإسماع والهداية فليس من وظائفك، ولا حيلة لك إليه، في المطبوع على قلوبهم.

---

(١) ورد تمثيل المؤمن بالحي، والكافر بالميت، في مواضع عديدة من القرآن كقوله تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ وقوله سبحانه: ﴿لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾ وقوله عزَّ وجل: ﴿فإنك لا تسمع الموتى..﴾ الآية، فالميت لا نفع فيه، ولا خير يُرجى منه، كذلك الكافر لا يفقه ولا يفهم الغاية من وجوده، فهو بهيمة في صورة إنسان، وشبح ميت في صورة آدمي يمشي ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤ ﴾ .

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي بعثناك بالهدى والدين الحقِّ ﴿ بَشِيرٗا ﴾ بالوعد الحق للمؤمنين ﴿ وَنَذِيرٗاۚ ﴾ بالوعيد الحق للكافرين ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ ﴾ أي وما من أمة من الأمم الدارجة، في الأزمنة الماضية ﴿ إِلَّا خَلَا ﴾ أي مضى ﴿ فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ من نبي أو رسول، ينذر قومه، لئلا يبقى لأحد حجة بعد الرسل.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ٢٥ ﴾ .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ ﴾ أي استمروا على تكذيبك، فلا تبال بهم وبتكذيبهم ﴿ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ من الأمم العاتية ﴿ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالمعجزات الظاهرات، الدالة على نبوتهم ﴿ وَبِٱلزُّبُرِ ﴾ كصحف إبراهيم عليه السلام ﴿ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾ كالتوراة، والإنجيل، والفرقان.

﴿ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٢٦ ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي أخذتهم بأشد أنواع العقاب، جزاء كفرهم وتكذيبهم ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي إنكاري بالعقوبة عليهم؟ ألم يكن شديداً فظيعاً؟ وفيه مزيد تهويل للعقاب.

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ ﴾ .

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ ﴾ أي مختلفة الأشكال، والألوان، والطعوم، من تفاح، وعنب، وتين ﴿ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ

﴿جُدَدٌ﴾ أي طرقٌ مختلفة اللون، ذات حجارة متنوعة ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ بالشدَّة والضعف والحمرة، والبياض، والسواد ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ كأنه قيل: من الجبال طرق وحجارة مختلفة اللون، ومنها ما هو لون واحد، ولفظ «غرابيب» تأكيد لمضمرٍ، يفسِّره ما بعده، فإن غربيب تأكيد للأسود، كالفاقع للأصفر، والقاني للأحمر، يقال أسود غربيب أي شديد السواد، والآية إشارة إلى علم طبقات الأرض.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ﴾ كاختلاف الثمار والجبال، فهذا أبيض البشرة، وهذا أحمر، وهذا أسود ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي إنما يخشاه تعالى العالمون به عزَّ وجل، لما أن مدار الخشية، معرفة المخشي، والعلم بشؤونه، فمن كان أعلم به تعالى، كان أخشى منه، ولهذا قال ﷺ للمتنطعين، المتشددين في أمر الدين: «أَمَا واللهِ إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له»[1] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: «ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»[2] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليل للخشية، أي أنه تعالى معاقبٌ للمصرِّ على الطغيان، وغفورٌ للتائب عن العصيان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾.

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري في النكاح ١١/ ٤ ومسلم رقم ١٤٠١ باب استحباب النكاح.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأدب ١٣/ ١٢٥ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٥٦.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾ أي يداومون على قراءة القرآن، ومتابعة ما فيه، حتى صارت سمةً لهم وعنواناً ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ حثٌّ على الإنفاق كيفما يتهيأ، وقيل: السرُّ في المسنونة، والعلانيةُ في المفروضة ﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً ﴾ تحصيل ثواب الطاعة ﴿ لَّن تَبُورَ ﴾ أي لن تكسد، ولن تهلك بالخسران، جيء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات، الدائرة بين الربح والخسران، لأنه اشتراء باق بفان، والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين، عدَةٌ قطعية بحصُول مرجوّهم.

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي أجور أعمالهم المذكورة ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ تعليل لما قبله، أي إنه غفور لفرطاتهم، شكور لطاعتهم ومجازيهم عليها.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وهو القرآن الكريم ﴿ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ الذي لا شك فيه أنه كلام رب العزة والجلال، فإنه حق وصدق وتاليه محقٌّ وصادق ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي مصدِّقاً لما سبقه من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ أي محيط ببواطن أمورهم وظواهرها، فلو كان في أحْوالك ما ينافي النبوة، لم يُوح إليك مثل هذا الحق، وتقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة هي الأمور الروحانية.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي ثم أورثنا القرآن العظيم هذه الأمة المحمدية، التي اخترناها على سائر الأمم ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وهم علماء الأمة من الصحابة ومن بعدهم، أو الأمة بأسرهم، فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾ بالتقصير في العمل به ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو الذي عمل عملاً صالحاً، وآخر سيئاً ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ أي سبَّاق إلى الخيرات، وعمل الصالحات بتيسره تعالى، وفيه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وفي المراتب الثلاثة أقوال: ١ ـ الظالم لنفسه: من رجحت سيئاته وزادت على حسناته، والمقتصد: هو الذي تساوت سيئاته وحسناته، والسابق بالخيرات من كثرت حسناته ورجحت على سيئاته، ٢ ـ وقيل: الظالم صاحب الكبيرة، المقتصد صاحب الصغيرة، والسابق المحفوظ بحفظ الله عن المعاصي، ٣ ـ وقيل: الظالم التالي للقرآن غيرُ العامل به، والمقتصدُ: الذي يتلو القرآن في بعض الأوقات، ويقصّر في بعض الصالحات، والسابق بالخيرات هو المتمسك في العمل بكتاب الله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى السبق بالخيرات ﴿ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي لا ينال إلا بتوفيقه تعالى أو إشارة إلى الميراث، والاصطفاء.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ أي جنات إقامة ينعَّمون فيها بأنواع النعيم ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ جمع الضمير لأن المراد بالسابقين: الجنسُ، وقيل الداخلون

هم الفرق الثلاث، لما روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً «هؤلاء كلُّهم في الجنة»[1] والقولُ الأول أقوى، لقرب ذكر السابقين، ولأنه ذكر إكرامهم، فالمكرَّمُ هو السابقُ وتخصيص حال السابقين بالذكر، وإن لم يدلَّ على حرمان الفريقين الآخرين، من دخول الجنة، لكنْ فيه تحريضٌ على السعي في إدراك شأو السابقين ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي يزينون في الجنة بأنواع الحلي والزينة، من الذهب، واللؤلؤ، والحرير.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ أي ويقولون، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ وهو ما أهَمَّهم من خوف سوء العاقبة، أو من حزن الموت، وأهوال يوم القيامة ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ أي للمذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ دار الإقامة ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ من إنعامه إذ لا واجب عليه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي كلال وملل، إذ لا تكليف فيها، والفرق بينهما أن النَّصَب نفسُ المشقة والكُلْفة، واللغوبُ: ما يحدث منه من الفتور والكلال.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأحمد في المسند، وانظر الأحاديث الواردة في تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٣.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لا يحكم عليهم بموت ثان ﴿ فَيَمُوتُواْ ﴾ ويستريحوا ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ ﴾ بل كلما خبت زيد إسعارها ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾ مبالغ في الكفر والإجرام، حتى يتمنون الموت ولا يُجابون كما قال تعالى: ﴿ونَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾[1].

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ والاصطراخ من الصراخ، وهو صياح المعذب بجهد ومشقة، استعمل في الاستغاثة، لجهر المستغيث بصوته ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ ﴾ بإضمار القول، أي يقولون: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً، يقولونه للتحسر على ما عملوه من غير الصالح ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾؟ جواب من جهته تعالى، والهمزة للإنكار، أي ألم نمهلكم ونعمّركم عمراً طويلاً، يتذكر فيه من تذكَّر قيل: هو أربعون سنة، وقيل ستون سنة، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرىءٍ أخَّر أجله، حتى بلغ ستين

(١) سورة الزخرف، آية: ٧٧.

سنة»[1] ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ والمراد به الرسول ﷺ، وقيل: الشيب والأول هو الأظهر ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفع العذاب عنكم، وهو أمر إهانة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فلا تخفى عليه خافية فيهما ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبله لأنه إذا علم مضمرات الصدور، وهي أخفى ما يكون، كان أعلم بغيرها، فلو قال قائل: الكافرُ ما كفر إلاَّ أياماً معدودة، فكان ينبغي أن لا يُعذَّب إلاَّ مثل ذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كان يعلم أن في قلب الكافر تمكُّنَ الكفر، بحيث لو دام إلى الأبد، لما أطاع الله وبقي على كفره، فلذلك يستمر عذابه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ قاله تعالى تقريراً لقطع حجتهم، أي نبَّهكم بمن مضى، وأمركم على لسان الرسل بما أمركم به، وجعلكم خلائف تخلفون من سبقكم، جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وأباح لكم منافعها، لتشكروا الله بالتوحيد، والطاعة ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ بعد هذا كله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ﴾ أي وبال كفره لا يتعداه إلى غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ﴾ بيان لوبال الكفر، وهو مقت الله تعالى إياهم أي بغضه الشديد لهم ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي خساراً في الآخرة، لأنه

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ٦٤١٩.

خسر سعادته، والتكرير لزيادة التقرير، فإنَّ العمر كرأس مال، من اشترى به رضاء الله ربح، ومن اشترى به سخطه خسر.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي آلهتكم، والإضافة إليهم لأنهم جعلوهم شركاء لله سبحانه، من غير أن يكون له أصل ما ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ أيَّ جزء خلقوا من الأرض؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي شركة مع الله تعالى، في خلق السماوات، ليستحقوا بذلك شركة الألوهية؟ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنَّا اتخذناهم شركاء ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي حجة ظاهرة من ذلك الكتاب، وفيه إيماء أن الشرك أمر خطير، لا بد في إثباته من تعاضد الدلائل ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لمَّا نفى أنواع الحجج، أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه، وهو تغرير الأسلاف للأخلاف، وإضلال الرؤساء للأتباع، بأنهم شفعاء يشفعون لهم يوم القيامة.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ﴾ استئناف مسوق بيان غاية قبح الشرك، أي يمسكهما كراهة زوالهما، ويمنعهما أن تزولا، لأن الإمساك المنعُ ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ أي ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ﴾ أي من بعد إمساكه تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ غير معاجل بالعقوبة للكفرة

والعصاة، مع استحقاقهم للعقاب ﴿غَفُورًا﴾ يغفر لمن تاب وأناب منهم، ورجع إلى ربه بالصدق واليقين.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي حلف المشركون بالله أشد الأيمان وأبلغها، أنه لو جاءهم رسول ليكونن أسبق الناس إلى الإيمان به، وذلك أنه بلغ قريشاً قبل مبعث الرسول ﷺ أن أهل الكتاب كذَّبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذَّبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم، أي من أهل الكتاب الذين كذبوا رسلهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو أشرف الرسل محمد عليه الصلاة والسلام ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ أي مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعداً عن الحق، لأنهم قبل الرسالة، كانوا كافرين بالله، وبعدها صاروا كافرين بالله والرسول، وكانوا يقولون: لو جاءنا رسول لآمنا به، فلما جاءهم أفضل الرسل كذبوا برسالته.

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي للاستكبار في الأرض ﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ وهو جميع ما كان يصدر منهم، من القصد إلى إيذائه، ومنع الناس من الدخول في الإيمان ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي لا يحيط ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وهو الماكر، وقد حاق بهم، وفي المثل: «من حَفَر لأخيه جُبّاً، وقع فيه منكبّاً» فإن قال قائل: كثيراً ما نرى أن الماكر يمكر، ويغلب الخصم بالمكر، والآية تدل

على عدم ذلك، والجواب أن الأمور بعواقبها، فالممكور به في الحقيقة هو الفائز، والهالك هو الماكر، وذلك مثل راحة الكافر، ومشقة المسلم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بأن يضع موضع العذاب الرأفةَ والرحمة ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بأن ينقله من المكذبين إلى العابدين المتقين، فالمعنى: إن سنة الله تعالى، هي الانتقام من مكذبي الرسل، لا يبدّلها في ذاته، ولا يحوّلها عن أوقاتها.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ﴾ أي كانوا أقوى من أهل مكة ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ أي ليسبقه ويفوته شيء ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي مبالغاً في العلم والقدرة، يعلم أعمالهم فيعاقبهم بموجبها.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ جميعاً ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من السيئات ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ على الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي من نسمة تدب عليها، من بني آدم من شؤم معاصيهم ﴿وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فيجازيهم عند ذلك

بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي قوله تعالى: ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ تسليةٌ للمؤمنين، يعني إذا جاء الهلاك، فالله بعباده بصير، لا يهلك جميع الخلق، بل يعلم من يستحق العقوبة والجزاء، ومن يستحق الكرامة والنجاة، والله أعلم بمراده، وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر»

* * *

obeikandl.com

سُورَةُ يسٓ

مكية وهي ثلاث وثمانون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ .

﴿يسٓ﴾ اسم للسورة، وعن ابن عباس أن معناه يا إنسانُ[1]، قالوا المراد به رسول الله ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ .

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن، ومعنى ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي المتضمن للحكمة، والمحكم الذي أُحكم في نظمه ومعانيه، لأنه كلام الحكيم جلَّ وعلا.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾ .

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جواب للقسم، والجملة للرد على قول الكفرة في حقه ﷺ: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ وهذه الشهادة من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى في جوابهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[2].

(١) قدمنا في أول سورة البقرة، أن الحروف المقطعة إنما وردت للتنبيه على إعجاز القرآن.
(٢) سورة الرعد، آية: ٤٣.

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ عبارة عن الشريعة بكمالها، أي أنت يا محمد على شريعة واضحة، ودين قويم، هداك ربك إليه، فاثبت على هذا الدين.

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾ .

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ التنزيل مصدر بمعنى المفعول، أي منزَّل من رب العزة والجلال، العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه، فهو منزَّل من عند الله، لا كما زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به.

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾ .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ أي لم ينذر آباؤهم الأقربون، لتطاول مدة الفترة ﴿ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ عن الإيمان والرشد.

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي والله لقد ثبت وتحقَّق عليهم، لكن لا بطريق الجبر، بل بسبب إصرارهم على الكفر، والمراد بالقول قوله تعالى لإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا ﴾ تقرير لتصميمهم على الكفر، بتمثيل حالهم بحال الذين غلت أعناقهم ﴿ فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾ أي فالأغلال منتهية إلى أذقانهم، فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق، ولا يطأطئون رؤوسهم له، لأن المغلول تكون يداه مجموعة في الغل إلى عنقه ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ رافعون

رؤوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحق، أو ينظرون إلى جهته.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ تتمة للتمثيل، أي وجعلنا مع ما ذكر من أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم سداً كذلك، فغطينا بهما أبصارهم، بحيث لا يبصرون شيئاً، فالآية إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في الأنفس والآفاق.

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يتساوى عندهم إنذارك لهم أو عدمه، لأن قلوبهم ميّتة، فلا يؤثّر فيها تذكير ولا تخويف.

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك ﴿ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ أي القرآن بالتأمل فيه، ولم يصر على اتباع الشيطان ﴿ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ ﴾ أي خاف عقابه وهو غائب عنه، أو خاف في سريرته ولم يغتر برحمته، فإنه منتقم قهار، كما أنه رحيم غفار، كما نطق به قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[1] ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ عظيمة ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ لا يُقادر قدرُه.

---

(١) سورة الحجر، آية: ٤٩ ـ ٥٠.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي نبعثهم بعد مماتهم، وعن الحسن: إحياؤهم: إخراجهم من الشرك إلى الإيمان، فهو حينئذٍ عِدَةٌ كريمة بتحقق المبشَّر به ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ أي ما أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ التي أبقوها من الحسنات، كعلم علَّموه، أو كتاب ألفوه، أو بناء بنوه كالمسجد، والرباطات، والقناطر، وغير ذلك من وجوه البر، ومن السيئات، كتأسيس قوانين الظلم، وترتيب مبادىء الشر، والفساد بين العباد، عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزرُ من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[1] وقيل: هي آثار خُطى المشَّائين إلى المساجد، ولعل أنها من جملة الآثار ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي في اللوح المحفوظ.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ أي بيِّنْ لأهل مكة ﴿مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي اجعل أصحاب القرية مثلاً لهؤلاء في الغلو والكفر، أي طبِّق حالهم بحالهم

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ١٠١٧ في قصة الضعفاء العراة من مضر الذين قدموا على رسول الله ﷺ يلبسون أكسية من الصوف البالية، ودعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى تقديم العون لهم، فتسارعوا في عمل الخير فقال ﷺ «من سنَّ في الإسلام..» الحديث.

والقرية أنطاكية على المشهور ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهلها.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ نسبة إرسالهم إليه تعالى، بناءً على أنه كان بأمره تعالى، وهما يوحنا وبولس، وقيل غيرهما ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي فبادروا إلى تكذيبهما في الرسالة ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ أي قوينا، يقال عزَّز المطر الأرض إذا لبَّدها ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعون ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ مؤكدين كلامهم لسبق الإنكار، وذلك أن أهل أنطاكية كانوا عبدة أصنام فأرسل عيسى عليه السلام اثنين من الحواريين، فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنمات له وهو حبيب النجار، فسألهما فأخبراه، فقال: أمعكما آية؟ فقالا نشفي المريض!! وكان له ولد مريض فمسحاه، فبرىء فآمن حبيب، وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق كثير، وبلغ حديثهما إلى المَلِك، فقال لهما: ألكما آلهة سوى آلهتنا؟ قالا: نعم من أوجدك وآلهتك؟ فحبسهما، ثم بعث عيسى عليه السلام «شمعون» فدخل متنكراً، وعاشر أصحاب الملك حتى استأنسوا به، وأوصلوه إلى الملك، فآنس به، فقال له يوماً: سمعت أنك حبستَ رجلين، قال: فهل سمعتَ ما يقولانه؟ قال لا، فدعاهما فقال شمعون: من أرسلكما قالا: الله الذي خلق كل شيء، قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنى الملك فدعا بغلام أكمه ـ أي أعمى ـ فدعوا الله فأبصر الغلام، فقال له شمعون: أرأيت لو سألتَ إلَهك حتى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله شرف؟ فقال الملك: إنَّ إلَهنا لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، فدعاه إلى الإيمان، لكنه لم يؤمن، واستمر على تعذيب المؤمنين هو وزبانيته فصاح عليهم جبريل فهلكوا.

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي أهل أنطاكية مخاطبين للثلاثة ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه، جعلوا كونهم بشراً دليلاً على عدم الإرسال، وهذا عام من المشركين ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾ مما تدعونه من الوحي والرسالة ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ في دعوى رسالته، وفيما تزعمونه.

﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ استشهدوا بعلم الله تعالى، وهو يجري مجرى القسم، وفيه إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب، لم يسأموا ولم يتركوا، بل أعادوا ذلك.

﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي ما علينا إلا تبليغ رسالة الله، وخرجنا عن عهدته، فلا مؤاخذة علينا بعد ذلك، وهذه تسلية لأنفسهم، وحث لهم على النظر والاستدلال.

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ ﴾ لما ضاقت عليهم الحيل ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ ﴾ أي تشاءمنا بكم، جرياً على ديدن الجهالة، حيث يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم، وإن كان مستجلباً لكل شر، ويتشاءمون بما لا يوافقها، وإن كان مستتبعاً لسعادة

الدارين، وقد روي أنه حُبس عنهم القطر، فقالوا: أصابنا ذلك بشؤمكم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ عن مقالتكم هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي لنقتلنكم رمياً بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وجيع أليم.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ أي الرسل ﴿طَائِرُكُم﴾ سبب شؤمكم ﴿مَّعَكُمْ﴾ لا من قبلنا، وهو سوء عقيدتكم، وقبحُ أعمالكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي وعظتم بما فيه سعادتكم، وجواب الشرط محذوف أي أإن ذكرتم تطيرتم، وتوعدتم بالرجم والتعذيب ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي ليس الأمر كذلك، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في الكفر والعصيان، ولذلك توعدتم، وتشاءمتم بمن يجب إكرامه.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو «حبيب النجار» وكان في غار يعبد الله، وكان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، فلمَّا بلغه أن قومه كذبوا الرسل، وقصدوا قتلهم جاءهم مسرعاً وقال أتسألون عمَّا جئتم به أجراً؟ قالوا: لا ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ تعرضَ لعنوان الرسالة حثاً على اتباعهم، كما أن خطابهم «بيا قوم» لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصحه.

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة، وصَفَهم بما يرغِّبهم

في اتباعهم، من التنزه عن الغرض الدنيوي ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى خير الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ تلطَّف في الإرشاد، بإيراده في معرض المناصحة لنفسه، وإخلاص النصح، حيث أراهم أنه اختار لهم ما اختار لنفسه، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم، إلى عبادة غيره، كما ينبىء عنه قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغة في التهديد، ثم عاد إلى النصح والتذكير فقال:

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؟ إنكار ونفيٌ لاتخاذ الآلهة، على الإطلاق وقوله: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ﴾ إشارة إلى وجود الإله، وقوله: ﴿أَأَتَّخِذُ﴾ إشارة إلى نفي غيره، فتحقق معنى لا إله إلا الله ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لا تنفعني شفاعتهم شيئاً من النفع ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ بالمظاهرة والنصرة.

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِنِّىٓ إِذًا﴾ أي إذا اتخذت من دونه آلهة ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإن إشراك ما ليس من شأنه النفع، ولا دفع الضر، بالخالق المقتدر، الذي لا قادر غيرُه، ضلالٌ بيِّنٌ لا يخفى.

﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾ خطاب منه للرسل، بطريق التلوين، وإنما أكَّده لإظهار صدوره عنه، بكمال الرغبة، والنشاط، كأنه قال: ربكم الذي أرسلكم آمنت به ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ أي اسمعوا إيماني، واشهدوا لي به عند الله تعالى، وقيل: الخطاب للكفرة، شافههم بذلك، إظهاراً للتصلب بالدين، وعدم المبالاة بالقتل أي آمنت بربكم أيها السامعون فأنا لا أخافكم ولا أخشاكم.

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ ﴾.

﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ ﴾ قيل له ذلك لما قتلوه، إكراماً له بدخولها حينئذ، كسائر الشهداء، وقال الحسن: لمَّا همُّوا بقتله رفعه الله إلى الجنةِ، فلما دخل الجنة ورأى نعيمها ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ ما أكرمني الله به من النعيم الخالد، في جنة الفردوس الأعلى.

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ﴾.

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ وإنما تمنى علم قومه بحاله، ليحملهم ذلك على اكتساب مثله، بالتوبة عن الكفر، والدخول في الإيمان والطاعة، جرياً على سَنَن الأولياء، في كظم الغيظ، والترحم على الأعداء، قال ابن عباس: نصح قومه في حياته، ونصحهم بعد مماته.

ثم إنه تعالى لما بيَّن حاله، بيَّن حال المخالفين له، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ أي من بعد قتله، أو رفعه ﴿ مِن جُندٖ

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإهلاكهم بل اكتفينا أمرهم بصيحة مَلَك، وفيه استحقار لهم ولإهلاكهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي وما صح في حكمتنا أن نُنزل جنداً لإهلاك قوم حبيب، لأنهم أذل وأهون من أن يرسل الله الملائكة لإهلاكهم.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿إِن كَانَتْ﴾ أي ما كانت ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح بها جبريل عليه السلام ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ أي ميتون هالكون، وفيه إشارة إلى سرعة الهلاك، أي ميتون خامدون كما تخمد النار، شُبِّهوا بالنار الخامدة، لأن الحيَّ كالنار الساطعة، والميت كالرماد الذي انطفأت ناره فأصبح خامداً، قال لبيد:

وَمَا المَرْءُ إلاَّ كالشِّهَابِ وضَوْئِهِ يَحُوْرُ رَمَاداً بعد إذْ هو سَاطِعُ

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ أي يا أسفاً على هؤلاء المكذبين لرسل الله، وهذا نداء عليهم كأنما قيل لها: تعالَيْ يا حسرة، فهذه من الأحوال التي حقها أن تحضري فيها، وهي ما دل عليه قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإن المستهزئين بالناصحين، أحقاء بأن يتحسَّر عليهم المتحسِّرون، وذلك لأن من جاءه مَلِكٌ في بادية، وعرَّفه نفسه، وطلب منه أمراً هيناً فكذَّبه، ولم يجبه إلى ما دعاه، ثم أُتي به بين يديه، وهو على سرير ملكه، فعرَّفه أنه ذلك الملك، فكيف تكون ندامته؟ فكذلك الرسل، هم ملوكٌ وأعظم منهم، بإعزاز الله تعالى إياهم، جاؤوا وعرفوا أنفسهم، وكان ما يدعون إليه أمراً هيناً، نفعُه عائد إليهم، ثم يوم القيامة عند ظهور البأس، تظهر عظمتهم، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة، وكيف لا وهم لم يقنعوا بالإعراض، حتى آذوا واستهزؤوا واستهانوا!!.

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾ ألم يعلموا ويُخبروا، والخطاب لأهل مكة الذين كذبوا سيد الرسل ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ أي كثرة إهلاكنا لمن قبلهم، من المذكورين المكذبين لرسلهم ومن غيرهم من الضالين ﴿ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي كونهم غير راجعين إليهم بعد الهلاك، فكما أنهم مضوا وانقرضوا إلى حيث لم يعودوا، فكذلك هؤلاء يهلكون وينقرضون ثم لا يعودون إلى الدنيا، ألا ينتبهون ويتعظون!!.

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي محضرون يوم القيامة للعقاب والجزاء، و«لما» بمعنى «إلاَّ» والمعنى: ما كلكم إلا مجموعون لدينا، محضرون للحساب والجزاء، فالكل يفيد معنى الإحاطة، والجميع معنى الاجتماع، ولما بيَّن الله الإهلاك، بيَّن أنه ليس من أهلكه الله تَرَكه، بل بعده جمعٌ وحساب، ونعم ما قيل:

وَلَـــو أنَّـــا إذا مِتْنَـــا تُـــرِكْنَـــا ... لَكَـــان المَـــوْتُ رَاحَـــةَ كُـــلِّ حَـــيّ
وَلَكِنَّـــا إِذَا مِتْنَـــا بُعِثْنَـــا ... وَنُســـأَلُ بعـــدَهُ عَـــنْ كـــلِّ شَـــيِّ

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ للكفرة ﴿ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ أي اليابسة، وهي أدلة تدل على كمال قدرته تعالى على إحياء الموتى ﴿ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ بالمطر ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ جنس الحبوب، يعني الحنطة، والشعير، والعدس، وما أشبههما ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ وتقديم الصلة للدلالة، على أن الحب معظم ما يُؤكل ويُعاش به، وإذا قلَّ جاء القحط.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي من أنواع النخيل والعنب ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي وأخرجنا فيها ينابيع من الماء العذب، والتفجير كالتفتيق، شقُّ الشيء شقاً واسعاً ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي بعضاً من العيون.

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ أي ليأكلوا من ثمرات ما ذكر من الجنات التي فيها من أنواع الحبوب والفواكه ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي وليأكلوا من الذي عملته أيديهم، وهو ما يتخذ منه كالعصير، والدبس ونحوهما ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ إنكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة، والفاء للعطف على مقدَّر، أي أيتنعمون بها ولا يشكرونها؟.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى﴾ تنزيه لله جلَّ وعلا، أي تنزَّه وتقدَّس الله العلي الجليل، الذي خلق الأصناف كلها، المختلفة الألوان، والأشكال، والطعوم، وفي لفظ «سبحان» استعظام لما ذكر، من بدائع آثار قدرته، وتشنيع على المشركين حيث تركوا شكر المنعم، ولم يقنعوا بالترك، بل عبدوا غيره، وأتوا بالشرك فقال: سبحان الذي ﴿خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي الأصناف والأنواع[1] ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ المراد به كل ما ينبت فيها، من

(١) لقد جاء القرآن بالمعجزة الكونية الباهرة، وكشف لنا الستار عن أمرٍ لم يكن يعرفه =

الأشياء المذكورة وغيرها ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي الذكر والأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ مما لم يطلعهم الله تعالى بعد عليه، لعدم قدرتهم على الإحاطة به، ولما لم يتعلق بذلك شيء من مصالحهم الدينية والدنيوية، وفي الآية معنى لطيفٌ، وهو أنه تعالى إنما ذكر كون الكل مخلوقاً، لينزِّه الله تعالى عن الشريك، فإنَّ المخلوق لا يصلح شريكاً للخالق، فعلى هذا فلا تشركوا بالله شيئاً مما تعلمون، فإنكم تعلمون أنه مخلوق، ومما لا تعلمون فإنها عنده تعالى مخلوق أيضاً.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ تدل على قدرتنا ﴿ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي نزيله عن مكانه ونكشفه، مستعار من سلخ الجلد، وهو إزالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال، والأغلب في الاستعمال تعليقه بالجلد، يقال: سلخت الإهاب من الشاة، ولما استدل الله بأحوال الأرض، استدل في هذه الآية بالليل والنهار، وفي الليل سكون الناس، وهدوء الأصوات، وفيه النوم كالموت، ويكون بعده طلوع الشمس، كالنفخ في الصور، فيتحرك الناس كما قال تعالى في الأرض: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ﴾ فذكر من الزمانين

= البشر إلا حديثاً، وهي أن الزوجية منبثة في كل ذرات الكون، في الإنسان، والحيوان، والنبات، والذرة، والكهرباء، وغير ذلك، وليست قاصرة على الإنسان والحيوان كما هو المعروف، فقد ثبت أن بين النبات أعضاء مذكَّرة، وأعضاء مؤنثة، وأن الذرة مؤلفة من زوجين من الإشعاع الكهربائي، وكذلك الكهرباء فيه الموجب والسالب، وهذا لم يُعرف إلاَّ حديثاً في عصر النهضة العلمية، وقد سبق القرآن إلى هذا حين قال: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ وهو لفظ يفيد العموم، وهنا قال: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها ممّا تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ فسبحان من أنزل كتابه المعجز، السابق للإكتشافات الكونية، على النبي الأمي، المؤيد بالحجج القاطعات، والمعجزات الباهرات، الدالة على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام.

أشبههما بالموت، وهما: الأرض الميتة، والليل المظلم ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام مفاجأة، وفيه رمز إلى أن الأصل هو الظلام، والنورُ عارض.

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ﴾ لحدٍّ معيَّن ينتهي إليها دورها وجريانها، وهو يوم القيامة، فشبه بمستقر المسافر إذا قطع سيره ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك الجري البديع، المنطوي على الحِكَم الرائعة، التي تحار في فهمها العقولُ والأفهام ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ أي المحيط علمه بكل معلوم.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ أي قدرنا مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل كل ليلة في واحدٍ منها، لا يتخطاها ولا يتقاصر عنه، فإذا كان في آخر منازله وهي الثامنة والعشرين، يستتر ليلتين، أو ليلة إذا نقص ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ﴾ كالشمراخ المعوج، من الانعراج وهو الاعوجاج ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ العتيق وهو العود الذي عليه شماريخ العذق إلى منبته من النخلة، والقديم الذي أتى عليه الحول، فإذا قدم يبس، وتقوَّس، واصفرَّ، فشبِّه القمر به في ذبوله، ونحوله، واصفراره.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾ لا يصحُّ لها ولا يتسهل ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ في سرعة السير، فإن ذلك يخلُّ بتكون النباتات، وعيش الحيوانات، ولا في

المكان بأن تنزل في منزله أو في سلطانه، فتطمس نوره، وإيلاء حرف النفي ﴿لا الشَّمْسُ﴾ للدلالة على أنها مسخرة، لا يتيسر لها إلا ما قُدِّر لها ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي كل من الشمس والقمر يسيران بانبساط وسهولة، وفق نظامٍ دقيق، وضعه العليم الحكيم.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أولادهم الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم وتخصيصهم بالذكر، لما أن استقرارهم في السفن أشق، ولأن منافع ذراريهم نفعٌ لهم، مثالُه من أحسن إلى ولدِ إنسان وفرَّحه، فرح بفرحه أبوه، وقيل المراد سفينة نوح عليه السلام، وحمل الله ذرياتهم فيها إنه حمل فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم ذرياتهم، وهو أدخل في الامتنان وأدخل في التعجيب، أما إن قلنا: إن المراد جنس الفلك، فهو أظهر، لأن سفينة نوح لم تكن بحضرتهم، ولم يعلموا من حُمل فيها، وأما جنس الفلك فإنه ظاهر لكل أحد، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾[1] ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء والشحنُ يدل على كمال المنفعة، وعلى عظم القدرة والإرادة، لأن الفلك المشحون أثقل الثقال، ليس حفظه فوق الماء إلا إرادة الله تعالى.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ من مثل الفلك ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل فإنها سفائن البرّ، ومما يماثل الفلك من السفن والزوارق، وجعلها أي السفن مخلوقة لله تعالى، مع كونها من مصنوعات البشر، لأن الله علَّم الإنسان

(١) سورة لقمان، آية: ٣١.

صنعها، وأصلها بقدرته تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[1].

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ أي لو أردنا لأغرقناهم في البحر، فإنهم معترفون بمضمونه كما ينطق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2] الآية. وفي الآية إشعارٌ بأنه قد تكامل ما يوجب إهلاكهم من معاصيهم، ولم يبق إلا تعلق مشيئته تعالى به ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي فلا مغيث لهم يحرسهم وينجيهم من الغرق، أو يدفعه عنهم قبل وقوعه ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي ينجون بعد وقوعه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي لا يُغاثون ولا يُنقذون لشيء من الأشياء، إلاَّ لرحمة عظيمة من قبلنا، داعيةٍ إلى الإغاثة والانقياد ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي وتمتيعاً لهم إلى زمان انتهاء آجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي وإذا قيل لهم بطريق الإنذار ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي احذروا سخط الله وعذابه، واعتبروا بما حلَّ بالمكذبين من الوقائع النازلة على الأمم الخالية قبلكم، والعذاب المعدِّ في الآخرة!! وجواب «إذا» محذوف تقديره: وإذا قيل لهم ذلك أعرضوا، دلَّ عليه قوله

---

(١) سورة هود، آية: ٣٧.

(٢) سورة لقمان، آية: ٣٢.

تعالى بعده: ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ ومن أُخبر بعذاب وإن لم يقطع بصدق المخبر، يتقيه احتياطاً، ومن لم يتق ذلك فهو في غاية الجهل، ونهاية الغفلة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ راجين أن ترحموا، فتنجوا بذلك من عذاب الله الشديد.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ صيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي و«مِنْ» الأولى مزيدةٌ لتأكيد العموم، والثانية تبعيضية، وإضافة الآيات إلى اسم الرب، لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه في حقها، والمراد بالآيات، الآيات التكوينية، الشاملة للمعجزات، وغيرها، فالمعنى: ما تظهر آية من الآيات، الشاهدة بوحدانيته تعالى، إلاَّ كانوا عنها معرضين، ومن كذَّب بالبعض هان عليه تكذيب الكل.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لأهل مكة ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي بعض ما أعطاكم الله من فضله على المحتاجين، فإن ذلك يرد البلاء، ويدفع المكاره، عبر عنها بذلك ترغيباً في الإنفاق على منهاج قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾[1] فيه إشارة إلى أن البخل قبيح، وأبخل البخلاء من يبخل بمال الغير ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالصانع عزَّ وجل، وهم الطغاة الزنادقة، كانوا بمكة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ تهكماً بهم، وبما كانوا عليه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى ﴿أَنُطْعِمُ﴾ حسبما تعظوننا به ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أي على

(١) سورة القصص، آية: ٧٧.

زعمكم، إيهاماً بأن الله لما كان قادراً أن يطعمهم، ولم يطعمهم، فنحن أحقُّ بذلك، ولم يقولوا «أننفق» بل قالوا ﴿أنطعم﴾؟ للمبالغة في المنع، كما يقول القائل لغيره: أعطِ زيداً ديناراً فيقول: لا أعطيه درهماً فضلاً عن الدينار، فكذلك ههنا، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله، وأن ننفق أموالنا على من أفقرهم الله.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي متى إنجازه فيما تعدوننا به، من قيام الساعة، مخاطبين رسول الله ﷺ والمؤمنين.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخة الأولى في الصور ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ أي تعمُّهم بالأخذ، تصل إلى من في مشارق الأرض ومغاربها مفاجأة ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم، لا يخطر ببالهم شيء من أمرها، كقوله تعالى: ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ فلا يغتروا بعد ظهور علاماتها، ولا يزعموا أنها لا تأتيهم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ في شيء من أمورهم، إن كانوا بين أهليهم ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ إن كانوا خارج بيوتهم، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ولتقومنَّ الساعةُ، وقد نَشَرَ الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه،

ولتقومنَّ الساعةُ وقد انصرف الرجل بلبن لقْحَته فلا يَطْعَمُه، ولتقومنَّ الساعةُ وهو يُليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعةُ وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[1].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[2] أي ينفخ فيه، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقق الوقوع، وبين الأولى والثانية أربعون سنة، لما روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون.. الحديث قالوا يا أبا هريرة أربعين يوماً، أو شهراً، أو سنة؟ قال: أبيتُ»[3] ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي من القبور جمع جدث ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مالك أمرهم ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون الخُطى بطريق الإجبار، دون الاختيار.

﴿قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ في ابتداء بعثهم من القبور ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ احضر فهذا أوانك ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ أي مضجعنا وفيه رمزٌ وإشعار بأنهم لاختلاط عقولهم، يظنون أنهم كانوا نياماً، وعن ابن عباس أن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون، فإذا بعثوا وشاهدوا من أهوال القيامة ما

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن وأشراط الساعة، ١٣/ ٨٢ ومسلم رقم ٢٩٢٢ في الفتن أيضاً، ومعنى اللَّقحة بفتح اللام: الناقة القريبة العهد من النتاج، ويُليط بمعنى يصلحه ويدهنه بالطين.

(٢) سورة الزمر، آية: ٦٨.

(٣) أخرجه البخاري ٨/ ٥٥١ في تفسير سورة الزمر، ومسلم ٢٩٥٥ في الفتن.

شاهدوا دعوا بالويل والثبور ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هو جواب من قبل الملائكة تذكيراً لكفرهم، وتنبيهاً على أن الذي يهمهم هو السؤال عن نفس البعث، دون الباعث أي قالوا: بَعَثكم الرحمن الذي وعدكم في كتبه، وأرسل إليكم الرسل يخبرونكم عنه، ولكنكم كذبتم به وكفرتم.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿إِن كَانَتْ﴾ أي ما كانت النفخة التي حكيت آنفاً ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ حصلت من نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي جميع الخلائق ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ من غير إمهالٍ طرفةَ عين، وفيه من تهوين أمر البعث والحشر، والإيذان باستغنائهما عن الأسباب ما لا يخفى.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس، بَرَّة أو فاجرة ﴿شَيْـًٔا﴾ من الظلم ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إلا ما كنتم تعملونه في الدنيا من الكفر والمعاصي، وهذه حكاية لما سيقال لهم، حين يرون العذاب، تحقيقاً للحق، وتقريعاً لهم.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ أي متنعمون بنعيم دائم خالد من الفكاهة بمعنى النعيم، وهم مشغولون عن أهوال القيامة، باللذة والسرور، لا بالويل والثبور، والمراد به ما هم فيه من فنون الملاذ، التي تلهيهم عما عداهم بالكلية، لا يفكرون في أهل النار، لئلا يتنغص

نعيمهم، قال ابن عباس: «شغلوا بافتضاض الأبكار، وسماع الأوتار، عن أهليهم من أهل النار، لا يذكرونهم لئلا يتنغّصوا»[1].

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ أي هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة، متكئون على السرر المزينة بالستائر الحريرية وهو بيانٌ لكيفية شغلهم وتفكههم، وتكميلهما بما يزيدهم بهجة وسروراً من شركة أزواجهم لهم، فيما هم فيه من الظل والأرائك.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أي لهم فيها فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون، من أسباب البهجة والسرور، وقال الزجاج: هو من الدعاء أي ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم.

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿سَلَامٌ﴾ أي ولهم سلام يقال ﴿قَوْلًا﴾ أي قولاً كائناً ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي يُسلم عليهم من جهته تعالى، وهو أكمل الأشياء، لا شيء فوقه، وذلك مطلوبهم ومتمناهم.

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي تميَّزوا وانفصلوا يا معشر الكفرة

---

(١) انظر تفسير البحر المحيط ٧/ ٣٤٢.

المجرمين عن عبادي المؤمنين، امتازوا عنهم أيها المجرمون إلى مصيركم المشؤوم، قال الضحاك: «لكل كافرٍ بيتٌ من النار، يكون فيه، لا يَرَى ولا يُرَىٰ» وهذا على خلاف ما للمؤمنين، من الاجتماع بالإخوان، ولا عذاب فوق الفراق، وقيل: يُميَّزون بسيماهم، كما في قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ المُجْرِمون بِسيمَاهُمْ﴾.

﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ﴾ هذا من جملة ما يقال لهم بطريق التقريع، والعهدُ: الوصيةُ بأمر فيه خير ومنفعة، والمراد ههنا ما كلفهم الله تعالى به على ألسنة الرسل عليهم السلام، من الأوامر والنواهي، والمراد بعبادة الشيطان: طاعتُه فيما يوسوس به، عبَّر عنها بالعبادة للتحذير ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة، تعليل للمنع عن عبادته.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ﴾ أي اعبدوني وحدي، ولا تشركوا بعبادتي أحداً، وتقديم النهي على الأمر لما أن حقَّ التخلية التقديم على التحلية، كما أن الطبيب يقول للمريض: لا تأكل من ذا، ثم يقول له: تناول الدواء الفلاني ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى معصية الشيطان، وطاعة الرحمن ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿هذا صراطٌ عليَّ مستقيم﴾ وقوله: ﴿لأقعدنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيم﴾ والتنكير للتفخيم.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ الجِبِلُّ: الخلقُ الكثير، والمعنى: وبالله لقد أضل منكم خلقاً كثيراً، عن ذلك الصراط المستقيم، فأصابهم لأجل ذلك ما أصابهم من العقوبة ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾؟ أي أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم، فلم تكونوا تعقلون؟.

﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ يخاطبون به عند إشرافهم على شفير جهنم، أي كنتم توعدونها على ألسنة الرسل، بمقابلة إطاعة الشيطان الذي أغواكم.

﴿ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ ﴾ أمر تنكيل وإهانة كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيم﴾ أي ادخلوها وقاسوا فنون عذابها ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي بكفركم المستمر في الدنيا.

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ ختماً يمنعها عن الكلام، وذلك أنهم حين يسمعون قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكفرون﴾ ينكرون كفرهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِين﴾ فيختم الله على أفواههم، فلا يقدرون على الإنكار ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ بإنطاقها كما ينطق من كان في المهد، لأن ذلك في قدرة الله يسير، أما الإسكات فلا خفاء فيه، وأما الإنطاق فلأن اللسان عضوٌ متحرّك بحركة مخصوصة، فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها، لأن الله تعالى قادرٌ على

الممكنات، وقد جعل الله الكلام للأيدي، والشهادة للأرجل، لأن الأفعال تستند إلى الأيدي قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإن الأيدي كالعاملة، والشاهد ينبغي أن يكون غيره، فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود على الإنسان، واللسان هو الناطق وقال تعالى: ﴿نَخْتِمُ﴾ ولم يقل: نُنْطِق أيديهم، لئلا يكون النطقُ بالإجبار، وقال: ﴿وتُكَلِّمُنَا﴾ أي باختيارها بعدما يقدِّرها الله تعالى على الكلام، روى مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنا عند الرسول ﷺ، فضحك فقال: هل تدرون ممَّا أضحك؟ قلنا الله ورسوله أعلم!! قال: من مخاطبة العبدِ ربَّه، فيقول: يا ربِّ ألم تُجِرني من الظلم؟ قال يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلاَّ شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيُختم على فيه، ويقال لأركانه انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْداً لكُنَّ وسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كنت أناضل»[1] قوله لا أجيز أي لا أقبل شاهداً سوى نفسي.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي لو نشاء أن نطمس على أعينهم لأعميناهم وأذهبنا أبصارهم ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي فبادروا إلى الطريق ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؟ أي لا يبصرونه فكيف إذا لم يكونوا على الصراط.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

(١) الحديث أخرجه مسلم وانظر جامع الأصول.

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ ﴾ بتغيير صورهم وإبطال قواهم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي مكانهم، أي لمسخناهم مسخاً يجمدهم مكانهم، لا يقدرون أن يبرحوه، بإقبال ولا إدبار، ولا رجوع، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ولا رجوعاً، فوضع موضعه الفعل لمراعاة الفاصلة، وقدَّم الطمس على المسخ، ليكون الكلام بالتدريج، كأنه قال قائل: الأعمى قد يهتدي إلى الطريق، بأمارات عقلية أو حسية، فارتقى وقال: ﴿وَلَو نَشَاءُ لَمَسَخْنَٰهُم عَلَىٰ مَكَانَتِهِم﴾ وليس الغرض مجرد بيان قدرته تعالى، على ما ذُكر من الطمس والمسخ، بل لبيان أنهم أحقاء بأن يُفعل بهم في الدنيا تلك العقوبة، وأن المانع من ذلك ليس إلاَّ عدم تعلق المشيئة الإلٰهية به، كأنه قيل: لو نشاء عقوبتهم بما ذُكر لفعلناها، ولكنّا لم نشأها جرياً على سنن الرحمة، والحكمة الداعيتين إلى إمهالهم.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي نطل عمره ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ﴾ التنكيسُ: جعل الشيء أعلاه أسفله، أي نقلبه فيه، ونخلقه على عكس حالته، فلا يزال يتزايد ضعفه، وتتناقص قوتُه، ويتغير شكله وصورته، حتى يعود إلى حالة شبيهةٍ بحال الصبي، في ضعف الجسد، وقِلة العقل ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟ أي أفيرون ذلك، فلا يعقلون أن من قدر على تنكيس الإنسان، وإعادته إلى حالة الطفولة، يقدر على ما ذُكر من الطمس والمسخ، وإن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما.

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ رد لما كانوا يقولونه في حقه ﷺ من أنه شاعر، وما يقوله شعر أي ما علمناه الشعر بتعليم القرآن، على معنى أن القرآن ليس بشعر، فإن الشعر كلام متكلف موضوع، ومقالٌ مزخرف مصنوع،

منسوج على منوال الوزن والقافية، مبني على خيالات وأوهام واهية، فأين ذلك من التنزيل الجليل، المنزَّه عن مماثلة كلام البشر، المشحون بفنون الحِكَم والأحكام الباهرة، الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، ومن أين اشتبهت عليهم الشؤون، واختلطت بهم الظنون، قاتلهم الله أنى يؤفكون؟ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ وما يصح له الشعر، ولا يتأتّىٰ له لو طلبه، لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدحض، وأما قوله ﷺ: «أنا النبيُّ لا كَذِبْ: أنا ابنُ عبدِ المُطّلِبْ» وقوله: «هَلْ أَنْتِ إلاَّ أُصْبُعٌ دَمِيتِ، وفي سَبِيلِ اللهِ ما لَقِيتِ» فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد، كما يتفق في كثير في خطب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة، ولا يسميها أحد شعراً، لأن صاحبه لم يقصد الوزن ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة من الله تعالى، وإرشاد للثقلين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي كتاب سماوي، بيِّنٌ كونه كذلك، فارق بين الحق والباطل، يُنال بتلاوته والعمل بما فيه فوزُ الدارين[1].

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي لينذر الرسول بهذا القرآن ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي من كان مؤمناً عاقلاً متأملاً في خلق الله، فإن الكافر الغافل بمنزلة الميت، فإن الحياة الأبدية بالإيمان ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي وتجب كلمة العذاب ﴿عَلَى

(١) كم بين القرآن وبين الشعر من فارق؟ فالشعر أعذبه أكذبُه، وهو قرآن إبليس وكلامُه كما يقولون، وقد كان ﷺ يحب من الشعر ما كان مشتملاً على حكمة، أو وصف جميل من مكارم الأخلاق، أو نصرة الإسلام والدين، أو ثناءٍ على الله ونصيحة للمسلمين، وكان أبغض الحديث إليه الشعر، أي ما كان فيه كذب وهجوٌ وقبح، وأمَّا ما روي من أنه عليه الصلاة والسلام كان يضع لحسان في المسجد منبراً فيقوم عليه يهجو من كان يهجو رسولَ الله والمؤمنين، فذلك من قبيل المجاهدة لأعداء الله، لأنه كان أشدَّ عليهم من وقع النبل.

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي المصرين على الكفر والعناد، وجعلُهم في مقابلة من كان حياً إشعارٌ بأنهم ـ لكفرهم وعدم تأملهم ـ أمواتٌ في الحقيقة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي ألم يتفكروا ويعلموا ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي لأجلهم وانتفاعهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي مما تولينا إحداثه بالذات، وذكر الأيدي وإسناد العمل إليها استعارة، تفيد مبالغةً في التفرد في الإحداث والخلق ﴿أَنْعَٰمًا﴾ الأنعامُ: هي الإبل، والبقرُ، والغنم، وهي الحيوانات المأكولة، وخصَّها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة، وكثرة المنافع، ولأنها أكثر أموال العرب ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ أي فهم مالكون لها بتمليكنا إياها لهم، حيث خلقناها لمنافعهم ومصالحهم.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ أي صيرناها منقادة لهم، بحيث لا تستعصي عليهم، في شيء مما يريدون بها، حتى الذبح ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي فبعضٌ منها مركوبُهم وعليها تحمل أثقالهم ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي وبعض منها يأكلون لحمه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أخر غير الركوب، والأكل، كالجلود، والأصواف، والأوبار، والحراثة بالثيران ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللَّبَن ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؟ أي أيتمتعون بها، فلا يشكرون المنعم بها عليهم؟.

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي متجاوزين الله تعالى، الذي شاهدوا تفرده بتلك القدرة الباهرة، وتفضله عليهم بهاتيك النعم المتظاهرة ﴿ ءَالِهَةً ﴾ من الأصنام، أشار تعالى إلى زيادة ضلالهم، وكان الواجب عليهم عبادة الله، وشكر النعمة، فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع، وتوقعوا منه النصرة؟ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ رجاءَ أن ينصروا من جهتهم، فيما حلَّ بهم من مصائب.

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أي لا تقدر آلهتهم على نصرهم ﴿ وَهُمْ ﴾ أي المشركون ﴿ لَهُمْ ﴾ أي لآلهتهم ﴿ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ يشيعونهم عند مساقهم إلى النار كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[1] وهؤلاء المشركون كالجند والخدام للأصنام، يمنعون منهم ويدفعون عنهم، فهم لهم بمنزلة الجند، والأصنام لا تستطيع أن تنصرهم.

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي فلا تحزن يا محمد على تكذيبهم لك، وسخريتهم بك، واتهامهم لك بأنك شاعر أو ساحر، وهذه تسلية للرسول ﷺ يسلّيه بها ربه، تخفيفاً عن الآلام والأحزان التي كان يكابدها ﷺ من المشركين والمراد بـ ﴿قَوْلُهُمْ﴾ الإلحاد في الدين، أوفيك بالتكذيب ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ في ضمائرهم من المكر، والخيانة،

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٨.

والعداوة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم من الأذى، أي نجازيهم بجميع جناياتهم، الخافية والبادية، التي لا يعزُب عن علمنا شيءٌ منها.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾؟ أي ألم يتفكر الإنسان، ولم يعلم علماً يقينيّاً، أنا خلقناه من نطفة قذرة، خسيسة خارجة من قناة النجاسة، وقوله: ﴿مِن نّطفَةٍ﴾ إشارة إلى وجه الدلالة، وذلك لأن خلقه لو كان من أشياء مختلفة، كأن يقال: العظمُ خُلق من جنس صلب، واللحم من جنس رخو، وكذلك الحال في كل عضو، لَمَا كان خلقه من نطفة متشابهة الأجزاء، وهو مختلف الصور؟ فدلَّ هذا على الاختيار والقدرة، وإذا قال الجاهل إنه استحال وتكوَّن جسماً آخر، لكنْ من أين جاءت القوة الناطقة «اللسان» والقوة الفاهمة «العقل»؟ ومن أين تقتضيهما النطفة القذرة؟ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي بيِّنُ الخصومة، أي فهو على مهانة أصله، ودناءة أوله، يتصدى لمخاصمة ربه، وينكر قدرته على إحياء الميت، بعدما رُمَّت عظامه؟ روي أن «أُبيَّ بنَ خَلف» أتى النبي ﷺ بعظم بالٍ يفتته بيده، وقال أترى يا محمد الله يحيي هذا بعد ما رُمَّ؟ فقال ﷺ له: نعم ويبعثك ويدخلك النار. وهذا وإن كان سبب النزول، لكنَّ الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فكل إنسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه، وقيل معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ هو بعدما كان ماءً مهيناً، رجلٌ مميز، ناطقٌ عاقل، قادرٌ على الخِصام، فهو حينئذ معطوف على ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ ويكون من تتمات شواهد صحة البعث[1].

(١) القول الأول أظهر، بدليل قوله تعالى بعده ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ فإنه دليل المكابرة والخصومة، والمجادلة بالباطل.

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ أي أورد في شأننا قصة عجيبة، هي في الغرابة والبعد عن العقول، كالمثل، وهي إحياؤنا العظام، استبعدها وعدَّها من قبيل المثل، وأنكرها أيَّما إنكار، وقاس قدرتنا على قدرته ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾ أي خلقنا إياه على الوجه المذكور ﴿ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ ﴾؟ أي قال منكراً له أشد الإنكار، مؤكداً له بقوله ﴿ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾؟ أي بالية أشدَّ البلاء، بعيدة من الحياة!! والمنكرون للحشر، لم يذكروا فيه دليلاً ولا شبهة، واكتفوا بالاستبعاد، وقالوا: ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟ ﴿أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟ إلى غير ذلك، فكذلك ههنا قالوا: ﴿مَن يُحي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فبدأ الله الردَّ على استبعادهم بقوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد، فهلاَّ يستبعدون خلق الإنسان الناطق العاقل، من نطفة قذرة، لم تكن محل الحياة أصلاً؟ ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محلٍ كانا فيه؟.

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ ﴾ أي قل يا محمد لهذا الكافر الفاجر، توبيخاً له وتسكيتاً: يخلقها ويحييها الذي أوجدها أول مرة من العدم، وأبدع خلقها من غير شيء، يعني: كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً. وأما استبعادهم لمن تفرقت أجزاؤه، في مشارق العالم ومغاربه، وصار بعضه في أبدان السباع، كيف يجمع؟ فقال تعالى في الرد على هذا الاستبعاد: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أي هو سبحانه مبالغ في العلم، بتفاصيل كيفيات الخلق والإيجاد، إنشاءً وإعادة، محيطٌ بجميع الأجزاء المتفتة المتبددة، لكل شخصٍ من الأشخاص، أصولها وفروعها، وأوضاع بعضها من بعض، من الاتصال

والانفصال، والاجتماع والافتراق، فيعيد كلاً من ذلك على النمط السابق مع القوى التي كانت قبل. ثم إنه تعالى عاد إلى تقرير ما تقدَّم من دفع استبعادهم فقال:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ أي الذي خلق لأجلكم ومنفعتكم من الشجر الأخضر ناراً، وهو المرخُ والعُفار، يقطع الرجلُ منهما غصنين، مثل السواكين، وهما خضروان يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ على العفار، فتنقدح النار بإذن الله، وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر، مع ما فيه من المائية المضادة لها، كان أقدر على إعادة الغضاضة، إلى ما كان غضاً فطرأ عليه اليبوسة والبلاء، فالنار في الشجر تناسب الحياة في البشر، فبان لطف قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾ ثم قال تعالى:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الواو للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي أليس الذي أنشأها أول مرة؟ وأليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ فإن بديهة العقل، قاضيةٌ بأن من قدر على خلقهما، فهو على خَلق الناس أقدر، كما قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس﴾[1] ﴿بَلَىٰ﴾ جواب من الله تعالى،

(١) سورة غافر، آية: ٥٧.

وتصريح بما أفاده الاستفهام الإنكاري ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي بلى هو قادر على ذلك، وهو المبالغُ في الخلق والعلم.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يحتاج الله إلى أكثر من أن يقول للشيء كن فيكون، وهذا إظهار لفساد تمثيلهم، حيث ضربوا لله مثلاً، وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا، فقاسوا قدرة الخالق على قدرة المخلوق، عجباً يضربون لله المثل الأدنى وله المثل الأعلى!!.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تنزيهٌ له تعالى عما وصفوه، وتعجيبٌ مما قالوا في شأنه تعالى معللاً بكونه مالكاً للملك كله، والمَلَكوتُ: مبالغةٌ في الملك ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيره، وفيه من الوعد والوعيد مالا يخفى. وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا على موتاكم يسَ»[1] ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يسَ»

* * *

(١) أخرجه أبو داود في سننه.